



عينان مطفأتان وقلب بصير



رواية

إِسْمَاعِيلُ

دكتور عبدالله الطنطاوي



عينان مطفأتان، وقلب بصير

دكتور عبد الله الطنطاوي

عبدالله الطنطاوي

القاص والروائي عبدالله الطنطاوي من مواليد بلدة إعزاز التابعة لمحافظة حلب سنة ١٩٥٣م، حاصل على دبلوم الدراسات العليا من الجامعة اليسوعية في بيروت، ودكتوراة فخرية من مؤسسة الاثينية في جدة، معد ومقدم لبرامج إذاعية وتلفزيونية كثيرة، ورئيس رابطة أدباء الشام. ورئيس تحرير الموقع الإلكتروني (أدباء الشام). له ثلاثة مسلسلات تلفزيونية، كل مسلسل في ثلاثين حلقة قدمت في عدد من التلفزيونات العربية. ونُشر له أربعة وسبعون كتاباً في القصة والرواية والنقد الأدبي والتراجم والتحقيق.



نهر متعدد.. متجدد

مشروع فكري وثقافي وأدبي يهدف إلى الإسهام النوعي في إثراء المحيط الفكري والأدبي والثقافي بإصدارات دورية وبرامج تدريبية وفق رؤية وسطية تدرك الواقع وتستشرف المستقبل.



وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
قطاع الشؤون الثقافية
إدارة الثقافة الإسلامية

ص.ب: 13 الصفاة، رمز بريدي: 13001 دولة الكويت

الهاتف: 2487106 (+965) - فاكس: 2468134 (+965)

البريد الإلكتروني: rawafed@islam.gov.kw

تم طبع هذا الكتاب في هذه السلسلة للمرة الأولى،
ولا يجوز إعادة طبعه أو طبع أجزاء منه بأية وسيلة إلكترونية أو غير
ذلك إلا بعد الحصول على موافقة خطية من الناشر

الطبعة الأولى - دولة الكويت

أبريل 2007 م / ربيع الأول 1428 هـ

الآراء المنشورة في هذه السلسلة لا تعبر بالضرورة عن رأي الوزارة

كافة الحقوق محفوظة للناشر

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

الموقع الإلكتروني: www.islam.gov.kw

تم الحفظ والتسجيل بمكتبة الكويت الوطنية

رقم الإيداع : 2006/540

ردمك : 5-71-90-99906

فهرس المحتويات

07	تصدير
11	تقديم
19	الفصل الأول
39	الفصل الثاني
53	الفصل الثالث
69	الفصل الرابع
93	الفصل الخامس
113	الفصل السادس
119	الفصل السابع
123	الفصل الثامن
157	الفصل التاسع
177	الفصل العاشر
197	الفصل الحادي عشر



تقریر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإصدار الأدبي والفني «إسهام»: المحررات والأهداف

إذا تأكد أن خير ما يتقوم به الشيء هو هويته ووظيفته، فإن الأدب يتخذ، هنا، قيمة كبرى، ويحتل أعلى درجات الأهمية والجدوى، ذلك أنه، من حيث الهوية، يرتد إلى معنى الأخلاق والآداب، ومن عجيب المواقفات أن العلاقة بين الأدب والآداب ظلت وطيدة حتى في لحظات الضعف الحضاري والركون إلى قيم فاقدة لدورها في تهذيب القيم وتوجيه النفس الإنسانية في تفرداها أو في علاقتها بمحيطها الاجتماعي والسلوكي. ومن يقرأ تاريخ الأدب العربي، قديمه وحديثه، يدرك هذه الصلة الحميمة بين الأدب والآداب والقيم، إلى درجة أنه يمكن الانتهاء إلى خلاصة جوهرية وهي أن الأدب لم يخرج، في يوم من الأيام، عن التبشير بقيمة أو التفسير من قيمة.

وهذا ينقلنا إلى المقوم الثاني من مقومات الأدب، ونقصد به وظيفته، فمنذ مقولة «هوراس»: «الشعر ممتع ومفيد»، وإلى أحدث الاتجاهات الأدبية، فإن الأدب له وظيفة، حتى ولو كانت وظيفته في أن يخرج عن وظائفه الأصلية أو «التقليدية»، بتعبير بعضهم، أو يتحداها، فالوظيفية قدر الأدب ومحدده الواقعي وضامن وجوده وبقائه واستمراريته.

والرسول عليه السلام، عندما قال: «إن من البيان لسحرا، وإن من الشعر لحكما»، وعندما أعلن المبدأ النقدي العام: «إنما الشعر كلام مؤلف، فحسنه حسن وقبيحه قبيح»، إنما كان، عليه السلام، يؤكد حقيقة أن الأدب له رسالة ووظيفة.

فمن وظائف الأدب، والفن بدرجة موازية، أنه يسهم في تشكيل رؤية الإنسان إلى الوجود والكون والحياة بمختلف مفرداتها وعلاقاتها، وقبل أن يقرأ الناس كتب الفلاسفة والمفكرين، فإنهم تلقوا القيم الوجودية الماثورة في ثنايا القصائد والأعمال الروائية والمسرحية والإنتاجات الفنية.

كما أن الأدب والفنون عامة، لغوية وغير لغوية، تسهم في تهذيب النفس، والارتفاع بذوقها وإحساسها بالجمال، وهي مخزن الأخلاق الفاضلة وداعيتها الأصدق، وهي التي تتغنى بفضائل الأخلاق وتسجل مآثر القيم، وتصوغ من بيانها حكما خالدة تحتفي بالصدق والوفاء والكرم وحزم الرأي والحب والخير والجمال، وتتفر من نقيضها.

وقد اعتور الأدب والفنون، في العصر الحديث، نوازل وأزمات، وخضعت، في بعض جوانبها، لتأثيرات المذاهب التي تدعو إلى التحرر من القيم والآداب، وجعل الأدب ميدانا لسيطرة النزوع نحو إفراغ الإبداع من محتواه القيمي، وتم استدعاء مقولات إلى ساحة النقد الأدبي، من مثل مقولة الإعلاء من الوظيفة الأسلوبية على حساب الوظيفة التهديبية، وتم محاصرة الداعين إلى قيمة الأدب والفن في زاوية الدعوات الماضية التي لم تعد صالحة لـ «حداثة» اليوم، وكأن هناك تناقيا وتناوبا قديرين بين «الحداثة» و«القيم»، في حين أن الأدب والفنون، كما أشير إليه سابقا، لا تتقوم إلا بهويتها ووظيفتها اللتين مضى معنا بيان أمرهما.

وإيماننا من قطاع الشؤون الثقافية بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بدولة الكويت بأهمية الأدب والفنون ودورهما في نشر القيم الفاضلة والدعوة إلى الذوق الرفيع والجمال المنتج، فإنه جعل من أكد أدواره الإسهام في تجديد النظر إلى هذا الميدان، ووضع إطار يجتمع فيه أصحاب الريادة الأدبية والمواهب البيانية والفنية، يقدمون للأمة خير ما تخطه أقلامهم في ميادين الشعر والقصة والرواية والمسرحية والدراسة الأدبية والفنون.

وقد تبلور ذلك الإيمان في إنجاز إصدار أدبي وفني دوري ضمن مشروع روافد، يحمل اسم «إسهام»، وذلك لإثراء الساحة الأدبية والفنية، وجعله منتدى لتوظيف مختلف الآداب والفنون في إشعاع القيم البناءة وتنمية الذوق والوجدان بأسلوب أدبي وفق الرؤية

الوسطية، ولتأكيد أن الدين الحنيف لم يعارض الكلمة الموحية المشعة والأشواق الجميلة المعبرة، ولم يقيد الإبداع الأدبي والفني الراقي، وإنما وضع الأسس والمعايير، وأفسح المجال للأدباء والفنانين للتعبير عن أشواقهم وطموحاتهم النفسية والاجتماعية. وذلك كله من أجل أن يكون الأدب والفن شعبة من شعب الإيمان، إذ لما كان الحياء شعبة من شعب الإيمان، ولما كان إمالة الأذى شعبة من شعب الإيمان، فكيف لا يكون الأدب شعبة من شعب الإيمان، وهما دعوة إلى قيم متساوقة مع قيم الحياء، وهما دعوة إلى إمالة أذى التصورات والمفاهيم والقيم السلبية من طريق الإنسان في رحلته إلى الله.

ويتوخى الإصدار الأدبي والفني «إسهام» العمل على تحقيق الأهداف الآتية:

- إبراز دور الأدب (الشعر والقصة والرواية والمسرح والدراسة الأدبية) والفنون (خط، زخرفة، عمارة...) في التحصين الثقافي في زمن يتميز بالانفتاح والتحويلات القيمة.

- إبراز دور الأدب والفنون في تنمية الذوق وتطوير مهارات الإدراك الجمالي لدى القراء والمهتمين.

- استثمار هذا الميدان الحساس لتمكين القيم الإسلامية من نفوس المهتمين والناشئة وعموم القراء والمتذوقين للأدب.

- الاستجابة لمنظور الإسلام الذي يغطي مختلف مناحي الحياة الإنسانية، ومنها جانب الذوق والوجدان والشعور، تلك الجوانب التي تعد، بحق، المحاضن الراحية للقيم والرؤى والأفكار.

- الاستجابة للتنوع الذوقي عند المتلقين، إذ يوجد من المتلقين من لا يتفاعل مع الأطروحات الفكرية المتطلبة لطاقة كبيرة من التركيز وإجالة النظر، ويجد نفسه مستجيبا للتفاعل مع الكتاب الأدبي، شعرا أو قصة أو مسرحية أو رواية، والعمل الفني.

- اكتشاف المواهب الأدبية والفنية في المجتمع الكويتي ابتداءً، والمجتمع العربي الإسلامي انتهاءً، ثم رعايتها وتأهيلها لاستيعاب القضايا الإسلامية الفاعلة في الساحة، ومعالجتها وفق منظور الوسطية والحوار الحضاري.

- الإسهام في تنشيط الخطاب الإسلامي حول الأدب والفنون.

- تشجيع الأدباء والفنانين على تجسيد مقتضيات مسؤوليتهم في التوجيه والتحصين والترشيد.

- توفير تراكم أدبي وفني يمثل دليلاً عملياً على قوة المرتكزات الفكرية والفنية للإسهام في ميدان الأدب والفنون.

إن السعي إلى نشر قيم الوسطية والتسامح والحوار الحضاري يعتمد أساليب ووسائل، ولا شك أن ميدان الأدب والفنون يعد أرحب الوسائل وأضمن الأساليب، لأنها، بطبيعتها، تخاطب وجدان المتلقي وتستثير فيه مكامن الاستجابة، وتستحث فيه قوة ذاتية للتأمل والنظر والمقارنة والاختيار، وتلك قيم يسهم الأدب والفنون في ترميتها إسهاماً فعالاً.

والأمل معقود على أدباء الأمة وفنانيها لأن يسهموا بإنتاجهم الأدبي والفني، وذلك من أجل إبراز دور الأدب والفنون في رعاية قيم الأمة ونقل طموحاتها ورؤيتها إلى العالم، تلك الرؤية القائمة على الفهم والتفاهم، والرغبة في التواصل وإشعاع قيم الحب والخير والجمال.



تقریم

تقدم الرواية «عينان مطفأتان وقلب بصير» تجربة شاب لم تمنعه إصابته بالعمى من أن يحقق أمنيته ويؤدي رسالته على الوجه الأمثل، نموذجاً يعكس تجربة أحد الذين انتصرت إرادتهم القوية على الإعاقة، فتحول إلى نموذج يقتدى به في المحافظ والمجالس ويسعى الناس إلى استشارته والأخذ برأيه، من العامة والخاصة، ومن الأسرة والمحيط القريب والبعيد على حد سواء.

ويختار الكاتب والروائي عبدالله الطنطاوي لبطل روايته، الشاب أعمى العينين بصير القلب ثاقب النظر، حاد البصيرة، اسم «صالح»، ويسعى، على طول الرواية، إلى أن يترجم معاني هذا الصلاح من خلال كثير من المحطات، سواء فيما تعلق بعلاقته بأمه وأبيه والمحيط القروي القريب منه أو بالمحيط العلمي الذي انتسب إليه، أو بالمحيط السياسي الذي حصل منه على الدعم النفسي والمادي لإتمام مسيرته العلمية والاجتماعية.

وتشير أحداث الرواية إلى أن الذكاء الذي تميز به البطل ورجاحة العقل وحسن البصيرة جعلته يتبوأ مكانة عالية بين أهله ومحيطه، أو لم يقل الشافعي:

تعلم فليس المرء يولد عالماً	وليس أخو علم كمن هو جاهل
وإن كبير القوم لا علم عنده	صغير إذا التفت عليه الجحافل
وإن صغير القوم إن كان عالماً	كبير إذا ردت إليه المحافل

هكذا كان حال البطل الشيخ صالح، الذي استطاع الروائي من خلال الوقوف عند أحداث ومواقف أن يقدم رؤيته لعدد من القضايا الاجتماعية كالإعاقة مثلاً التي لم تكن حائلاً دون الوصول إلى الهدف المنشود بفضل الإرادة القوية والعزيمة الصلبة اللتين تسليح بهما الشاب صالح لمواجهة الحياة بقوة، ولتحقيق الاندماج الإيجابي

في المجتمع انطلاقاً من مراحل دراسته الأولى مزوداً بفلسفة رفض اليأس والفشل والتشاؤم، وانتهاءً بالزواج الذي جعله منطلقاً نحو آفاق أخرى جديدة وبنفس جديد نحو تحقيق الهدف وإثبات الذات، مروراً بمخالطة الناس والنصح لهم ومد يد العون لهم، والإحسان إلى الوالدين، وغير ذلك من مظاهر شبكة العلاقات الاجتماعية.

هما رسالتان اثنتان يسعى رئيس رابطة أدباء الشام، الروائي عبدالله الطنطاوي إلى إبلاغهما إلى القراء من خلال روايته «عينان مطفأتان وقلب بصير»، تتعلق الأولى بشرط توافر الإرادة عند كل من يرغب في التطوير والتقدم نحو الأفضل، وهذا ما يعكسه كلام الشيخ صالح حين قال: «أنا لست عاجزاً يا أبي، العمى ابتلاء من الله، ولن أكون عاجزاً بسببه»، فهي جملة تعكس الإرادة القوية لهذا الشيخ الشاب، الذي آمن بالقدر وآمن بالفرار من قدر إلى قدر آخر، فقرر مواصلة درب التحصيل العلمي حتى أدرك ما أدرك، رافضاً أن يُنظر إليه نظرة استعطاف وشفقة، فهب يقوم بما عجز عن القيام به كثير من المبصرين من أقرانه وممن هم أكبر منه. وأما الرسالة الثانية فهي واجب الأمة ومسؤوليتها في الاعتناء بالطاقات والمواهب والسهر على توجيهها وإزاحة ما يعترضها من مشاكل تحد من عطائها، وهو الدور الذي تولاه الشيخ فاتح، أحد أصدقاء أبي صالح الأغنياء، الذي فتح الله على يديه للشاب صالح طريق دراسة العلم الشرعي، ليكمل الوزير هذا المشوار ويعتني بهذا الشيخ الضرير عناية جعلته محط أنظار أهل القرية والمجتمع.

وتقدم الرواية بطلها الشيخ صالح نموذجاً للشاب الفعال المخلص الغيور على وطنه وقريته، الذي يحب الخير للناس ويسعى لإسعادهم، نموذجاً لصاحب رسالة حضارية تعليمية يؤديها نظير ما حصل من علم، وما قدمت له من مساعدات لتحقيق ذلك، نموذج من آمن بسلاح العلم والكلمة فطفق يعلم أهل قريته ساعياً إلى الانتقال بهم من عالم الجهل والامية إلى نور العلم والمعرفة، نموذج من يسخر

كل الإمكانيات المتاحة إليه في تحقيق هدف أسمى، فقد سخر هذا الشاب الرجل الغني الحاج فاتح من خلال خدماته، وإنفاقه المادي، وسخر الوزير، ذا النفس الطيبة الخيرة، كرمز للسلطة، وسخر والده صالح، كرمز للرجل الفقير المكافح الذي لا يحب أن تفوته مشاركة في عمل خيري، فهو بهذا نموذج من يحسن فن التعامل مع المحيط ويسخره لتحقيق خير الأمة.

ومن الناحية الشكلية يمكن القول إن الرواية «عينان مطفأتان وقلب بصير» انبنت في أحداثها وفق خط تصاعدي في الزمن، فأحداث الرواية تبتدئ منذ أن كان البطل يافعاً إلى أن هاجر طلباً للعلم، إلى حين الزواج، إلى أن قارب على مناقشة الماجستير، وقد عمدت الرواية إلى نقل هذه الأحداث متوالية في الزمن، بعيداً عن تقنية الاسترجاع والتذكر إلا في ما ندر، كتقنية ترجع للقارئ إلى أحداث من الماضي، أو تقنية التضمين، بمعنى تضمين مشهد من الرواية مضامين وأحداث أخرى، وهذا الخيار أتاح للقارئ فرصة أن ينشد إلى الرواية في تسلسل أحداثها ومواقفها الإنسانية وحسن التصوير كل ذلك يجعل القارئ لا يترك الرواية إلا بعد أن يتم قراءتها ويحصل له التعاطف المطلق مع البطل متمنياً تعميم هذه التجربة لتكون مثالا يحتذى.

وقد ازدادت الرواية جمالية وإحكاماً بفضل الحبكة الفنية في التصوير والدقة في نقل التفاصيل والجزئيات، والبناء التسلسلي للأحداث، والبساطة في التراكيب والعبارات. هذا فضلاً عن حرص واضح على تعميق معنى كثير من الأخلاق السامية في نفوس القراء من قبيل البذل في سبيل العلم، وخدمة أهله، وبناء المدارس، والتعاون مع الغير في المعروف، والإيثار، والتضحية.

وتتقدم الرواية بشكل عام بمشروع ذي شعبتين:

شعبة استثمار الإعاقة وجعلها عنصر تحفيز وفعالية نحو العطاء،

وهو ما تم من خلال تقديم نموذج الشيخ صالح، أعمى العينين بصير القلب.

شعبة تفسير مفهوم الإعاقة، بمعنى أن الإعاقة ليست نتيجة مرض عضوي يصيب عضواً من أعضاء الجسد، وإنما الإعاقة في الركون إلى الكسل والخمول واليأس.

والقارئ الكريم مدعو إلى ولوج فضاء الرواية والاستمتاع بعالمها الفني والقيمي.



الفصل الأول

توقّفت السيارة بالقرب من فتى يافع لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره، ومدّ الحاج فاتح رأسه من نافذة السيارة، ونادى:

– يا ولد .. يا ولد .. أنت يا ولد.

توقّف الفتى عن تلاوة القرآن، وسأل:

– هل تتاديني؟

أجاب الحاج فاتح:

– وهل هناك غيرك في هذه القرية حتى أناديه

نهض الفتى من جلسته في ظلّ الجدار، وتقدّم نحو صاحب الصوت، ثم قال:

– اسمي صالح، ويدعوني أهل القرية بالشيخ صالح.

نظر الحاج فاتح نحو ابنه فؤاد الذي كان يجلس بجانبه، ثم نظر إلى الفتى، وظهر له أنه ضئير، ولكنه فيما يبدو ذكي وفصيح.. ثم قال له:

– السلام عليك يا ولدي يا شيخ صالح، هل تركب معنا، لتدلّنا على منزل المزرعاوي؟

سأل الشيخ صالح:

– من أنت أولاً يا عمي؟

أجاب الحاج فاتح:

– أنا فاتح، اسمي فاتح، ويدعوني بالحاج فاتح.

- والذي معك؟

- معي ولدي فؤاد، وهو في مثل سنّك.

ثم التفت إلى ابنه وقال له:

- سلّم على الشيخ صالح يا فؤاد.

مدّ فؤاد يده مصافحاً، فأخذ الشيخ صالح كفّه الناعمة بين كفّيه الخشنتين، وقال له:

- أهلاً بك وبأبيك يا فؤاد.. أنتم بين أهلكم.

صعد الشيخ صالح إلى السيارة، واستأذن فؤاد أباه في الجلوس إلى جانب الشيخ صالح، في المقعد الخلفي، فأذن له.

قال الشيخ صالح:

- امش يا عمي على بركة الله.

- إلى أين؟

- إلى بيت المزرعاوي.

سأل الحاج فاتح:

- من أين أسير؟

فدّله الشيخ صالح.

- تمشي مئتي خطوة إلى الأمام، ثم تتعطف إلى اليمين، أو تقف في الساحة التي على اليسار لأنّ بيت والدي المزرعاوي لا يبعد أكثر من عشرين خطوة من الدخلة الضيقة.

سأله الحاج فاتح باهتمام:

- هل أنت ابن أبي صالح المزرعاوي؟

فضحك الشيخ صالح وهو يقول:

- أنا صالح، وهو أبو صالح، فمن أكون إذن، إذا لم أكن ابن أبي صالح؟

ضحك فؤاد وضحك معه أبوه، شاركهم الشيخ صالح في الضحك،
فيما كان الحاج فاتح يصفّ سيارته الفخمة في الساحة التي أشار
إليها الفتى صالح.

ترجّل الثلاثة من السيارة، وسار الشيخ صالح بين الوالد وولده،
رافع الرأس، بارز الصدر، ثابت الخطو، كأنه بصير يرى طريقه،
ويتحاشى الحفر والنتوءات الصخرية، ويحذر صاحبيه منها:

- انتبه يا عمي الحاج... انتبه يا صديقي فؤاد.. قریتنا - كما تريان
- مهمة، والدروب فيها مُتْرَبَة، وصخرية، تعلم راكبي السيارات الرقص.

فقال فؤاد وهو يبتسم:

هل علمتك الرقص يا شيخ صالح؟

ابتسم صالح وهو يقول:

- لو كان عندنا سيارة لعلمتني... ولكنني عرفت هذا عندما ركبت
سيارتكم، وهي المرة الأولى في حياتي التي أركب فيها سيارة.

- في حياتك؟

- نعم.. لم أركب سيارة قط، ولم أخرج من قريتي إلا إلى الحقل
لأساعد أبي في الحراثة والبذار والحصاد، وأساعد أمي في جمع

الخطيب، وحمله، وتنقية التربة من الحجارة والأشواك والأعشاب الضارة بالمزروعات.

قال فؤاد في دهشة:

- أنت تقوم بكل هذه الأعمال؟

- فأجابه أبوه:

- لو لم يقم بتلك الأعمال، وبغيرها ما دعوه الشيخ صالح، ثم إنه مزرعاوي.

قال صالح:

- وصلنا... هذا هو البيت.

تقدم صالح وقرع الباب، ثم فتحه وهو يصيح:

- يا الله.. يا أم صالح جاءنا ضيوف كرام.. أعطينا الطريق.

ثم التفت إلى الضيفين، وقال وهو يدلّهما على البيت:

- تفضل يا عمي.. تفضل يا سيّد فؤاد.

- دخل الضيفان خلف صالح، وخرج أبو صالح مرحّباً بهما، ومعانقاً، فسأله ابنه صالح في مكر:

- هل تعرف الحاج فاتح يا أبي؟

- فصاح الأب:

- كيف لا أعرفه يا ولدي وهو وليّ نعمتي التي تعيشون فيها بعد الله؟ ثم كيف لم تعرف أنت الحاجّ فاتحاً يا صالح؟

- ثم أقبل من جديد على الضيوف مرحباً:

- أهلاً بك يا حاج فاتح.. أهلاً بك يا أيها الفتى النبيل.

فقال صالح:

- فؤاد .. هذا صديقي فؤاد، ابن الحاج فاتح يا أبي.

فتابع الأب:

- أهلاً بك يا ولدي يا فؤاد.. لكن.. أين الحاجة أم عدنان؟ وأين السيد عدنان، والسيد كامل، والأنسة غالية؟

وقال صالح:

- نسيت السيد أنس يا أبي.

فقال فؤاد:

- إذن أنت تعرف أسماءنا كلها يا شيخ صالح؟

قال صالح، وإكليل من البسمات العذاب يرتسم على شفثيه
السمراوين الياستين:

- لقد عرفتكم من اللحظة الأولى التي نطقتم بها اسمك يا عمي،
ولذلك لم أسألك عما تريده من بيت المزرعاوي.

- ولكنك لم تُظهر لنا أنك تعرفنا.

قال صالح:

- الاحتياط مطلوب يا عمي..

وقال أبو صالح:

- صالح هكذا يا حاج..

فقاطعه الحاج فاتح:

- اسمه الشيخ صالح يا أبا صالح.. أليس كذلك يا شيخ صالح؟

- بلى يا عمي.. أنا أحب أن ينادوني بالشيخ صالح.. كل أهل القرية ينادونني بالشيخ صالح، وكذلك يفعل أبي، أمّا أمي وإخوتي فلا ينادونني بالشيخ صالح..

ثم أخذ يقلدهم:

- صالح.. يا صالح... أين أنت يا صالح.

وضحك صالح، وضحك معه أبوه وفؤاده، أمّا الحاج فاتح، فقد استغرق في الضحك، فانتابته نوبة سعال كادت تقضي عليه، لولا أن الله سلّم، فقد أسرع أبو صالح، وجاء بإبريق ماء، وكأس، فتناول الحاج فاتح منه بضع قطرات، ومسح وجهه بباطن كفه المبلل بالماء، فسكت عنه السعال وهدأ، ولكنّ عينيّه العسليتين الواسعتين ما تزالان تسحّان الدموع...

لاحظ أبو صالح أن ولده يريد أن يلقي نكتة جديدة، فصاح به:

- اترك الحاج يستريح يا صالح.. كاد يموت من مزاحك يا صالح.

ثم التفت إلى الحاج فاتح وقال:

صالح يخفف دمه مع من يعرف، ومع من لا يعرف، بشرط أن يأنس به، ويطمئن إليه.

ابتعد صالح قليلاً عن الحاج فاتح، ولاحظ أبوه ارتجاف بدن الحاج،
فالتفت إلى صالح، وسأله:

- ماذا فعلت يا شيخ صالح؟

قال صالح:

- لا شيء .. كنت أقلّد أمّي: صالح..

فصرخت به أمّه من صحن الدار:

- كفّ عن هذا صالح.. ما صدّقنا أنّ الحاج استراح.

فقال الحاج فاتح:

- بالله عليك يا أمّ صالح.. لاتناديه بعد الآن إلا بالشيخ صالح.

قالت في أدب وقد اقتربت من باب الغرفة:

- أمرك يا حاج.. أمرك..

ثم نادت:

- يا صالح..

فانفجر الجميع بالضحك، وعادت أمّ صالح أدراجها وهي تقول:

- هذا الولد سوف يجنني.. يريد أن يكون شيخاً، ويريد أن نعترف
بمشيخته.. هذا يجوز، وهذا لا يجوز.. أعوذ بالله.

ناداها زوجها:

- نريد قهوة يا أم صالح.

ردّت عليه من بعيد :

قل للشيخ صالح يعمل القهوة.. أنت لا تحبّها إلا من يده.

فنهض صالح وهو يقول :

- أمرك يا أمي... أحلى قهوة سوف تشربونها من يد الشيخ صالح.

خرج صالح من الغرفة، واتجه نحو المطبخ، وهو يسترضي أمه، بينما كان الحاج فاتح مندهشاً من حركة صالح، وكأنه بصير.

لاحظ أبو صالح هذا التساؤل في عيني ضيفه، فقال له :

- عند هذا الولد أعجوبة.. لا ينقصه إلا النظر.. ذكي جداً.. تصوّر يا حاج أنه حفظ القرآن الكريم قبل سنتين.. كان في العاشرة عندما تنافس مع إمام المسجد على حفظ القرآن، تحدّى الإمام الذي يعلمه القرآن واللغة العربية، ثم جلسا يحفظان، واعترف الإمام بأن حفظ صالح أقوى من حفظه هو...

سأل الحاج في انبهار:

- حفظ القرآن وهو ابن عشر سنين؟

- نعم.. وترتيبه جميل؛ وتجويده - كما يقول الإمام - سليم جداً.

سأله الحاج:

- وكيف دراسته؟

أجاب أبو صالح:

- نال الشهادة الابتدائية في العام الماضي، كان يذهب إلى القرية المجاورة.. عشرة كيلو مترات يمشيها كل يوم ذهاباً وإياباً من أجل المدرسة.

- ولماذا لم تسجله في الإعدادية؟

- البلدة التي فيها إعدادية بعيدة جداً.. أكثر من ثلاثين كيلو تبعد عن قريتنا، ولا يوجد لنا قريب هناك حتى يسكن عنده.

ثم نظر إلى الحاج فاتح نظرة ذات معنى، فيما كانت أمّ صالح تقف خلف الباب وتقول:

- والله يا حاج فاتح، لو أننا نستطيع أن نعلمه لما قصرنا، ولكن العين بصيرة، واليد قصيرة.. يا حسرة على ذكائه.

وقال أبو صالح:

- وهو ضرير، ويحتاج إلى من يخدمه.

فجاء صوت صالح:

- أعطيني الطريق يا أمي..

ودخل يحمل صينية القهوة، ويتقدم بها نحو الحاج فاتح، وهو يقول:

- هل سمعت كلام أمّ صالح يا عمّي؟ قالت: يحتاج إلى من يخدمه، وهأنذا أخدمهم وأخدمكم.

ضحك الجميع إلا الحاج فاتحاً، فقد تناول فنجان القهوة في صمت، وكأنه ذاهل عمّا يتحدث به صالح وأمه وأبوه.

قال أبو صالح:

- ويحك يا شيخ صالح.. كأننا ليس لنا حديث غيرك.. أفلا تأخذ فؤاداً لتريه القرية؟

- قال صالح ضاحكاً:

- الحمد لله الذي أعمانني حتى لا أرى هذه القرية.. ماذا فيها حتى يراها؟ هل أريه أزقتها الضيقة، أم بيوتها الطينية، أم دوابها؟ أم ماذا؟

قال أبوه:

- ويحك يا ولدي، لقد أخجلتني بكلامك هذا.

قال صالح:

- لا تخجل من هذا يا أبي، فليس الذنب ذنبك..

قال أبو صالح مؤمناً على كلام ابنه:

- كلامك صحيح يا ولدي، فأنا عاجز مثلك.

فانتفض صالح قائلاً ومقاطعاً:

- أنا لست عاجزاً يا أبي... العمى ابتلاء من الله، ولن أكون عاجزاً بسببه.. أنا أذكى من زملائي المبصرين.. كنت الأول في المدرسة، وحفظت القرآن الكريم قبل الإمام، وأنظم الشعر، وزملائي وأقربائي، وأبناء قريتي والقرى المجاورة كلها ليسوا خيراً مني، بل ليسوا مثلي، وأنت تعرف هذا يا أبي، وكل أهل القرية يعرفون، ولذلك أسموني الشيخ صالح.

قال الأب في انكسار:

- الحمد لله الذي وهبك هذه المشاعر يا ولدي.

وبعد قليل، قال:

- اذهب بصديقك السيد فؤاد إلى الكرم، وكلا من التين والعنب، واقطفا لنا أيضاً.

قال صالح:

- أمّا هذه فنعم.. هيّا يا فؤاد.. هيّا يا صديقي، استأذن أباك..

قال فؤاد:

- هل تسمح لي يا أبي؟

فهزّ الحاج رأسه موافقاً، وسحابة من الاهتمام والتفكير بادية على محيّا.

بعد أن خرج الفتيان، همّ أبو صالح بالكلام، فقال له الحاج فاتح:

- ما رأيك يا أبا صالح في تعليم ابنك في المعهد الشرعي في المدينة؟ إنها مدرسة داخلية، يأكل فيها الطلاب وينامون، ويتعلمون، وهناك علماء أفاضل يعلمونهم أمور دينهم، ويحصلون في نهاية المرحلة على الشهادة الثانوية التي تؤهلهم للانتساب إلى كلية الشريعة في الجامعة.

زفر أبو صالح شواظاً من نار ثم قال:

- يا ليت ... يا ليت... يا حاج.

قال الحاج فاتح:

- أعطني أوراقه، وسوف أسجّله بإذن الله، وسيكون بمثابة ولدي فؤاد الذي سجّله فيه.

- ولكنه أعمى يا حاج فاتح.

- وليكن .. انظر إلى الأزهر الشريف .. كثير من طلابه ومشايخه من العميان... العمى ليس عاراً ولا عيباً، ولن يكون عقبة في طريق

الأذكىاء والمجدّين.. أم تريدني أن أضرب لك الأمثال بعشرات الشعراء، والكتّاب، والأدباء، والمفكرين، والعلماء، والمتفوّقين ممّن ابتلاهم الله بعاهة العمى؟

قال أبو صالح:

- أنت تعلم حالي يا حاج فاتح.

فقاطعه الحاج فاتح:

- قلت لك: إنه سيكون مثل ولدي فؤاد.. اسمح لي أن أوضح لك... سوف أقدم له مثل ما أقدم لولدي من المصروف، واللباس، وكلّ ما يلزم.

قال أبو صالح:

- ولكنّ هذا كثير يا حاج..

قال الحاج..

- ليس كثيراً... الخير موجود ولله الحمد، ثم... ألسنا أصحاباً؟ أليس بيتنا خبز وملح كما يقولون؟

ثم... لا إله إلا الله.. ناد أم صالح.

فنادى أبو صالح زوجته:

- يا أم صالح.. تعالي... يا أم صالح..

جاءت أم صالح مسرعة ووقفت خلف الباب، وقالت:

- خيراً إن شاء الله؟ الطبخة قاربت على النضج.. ساعة ويكون الطعام جاهزاً يا أبا صالح.

قال أبو صالح:

- اسمعي يا أمّ صالح.

وقال الحاج فاتح:

- كنت في (المحلّ) فخطرتم على بالي، وشعرت بشيء يدفعني إليكم، فقممت إلى السيارة ولحقني ابني فؤاد، وترك المحلّ لعدنان، وجئت إليكم، لأتعرف على قريبتكم وبيبتكم، ولعل الله ساقني إليكم من أجل الشيخ صالح.

قالت الأمّ خائفة:

- ما لك وللشيخ صالح يا حاج؟

فحكى لها زوجها عَرَضَ الحاج فاتح، فصاحت:

لا يا حاج.. إنه ضرير.. معاق يا حسرة.. يحتاج إلى من يخدمه.

قال الحاج فاتح:

- هناك من يخدمه كما يخدم سائر الطلاب.. مدرسة داخلية يا أمّ صالح، وأنا أشرف عليه، وعلى مسؤوليتي كلّ ما يحتاج إليه.. وكلّ مشايخ المعهد يعرفونني، ويسعون لإرضائي.

- ولكنه أعمى.. غربة وعمى... مصيبتان يا حاج.. ضربتان على الرأس يا حاج.. لا.. لا يا حاج.. وما زال بها زوجها والحاج فاتح حتى رضيت وهي تقول:

- حسبي الله ونعم الوكيل .. سلّمك الله يا ولدي يا صالح..

فقاطعها الحاج فاتح:

- يا شيخ صالح..

فضحكت، وهي تلتقط دموعها بكفيها:

- يبدو أنه سيكون شيخاً، كما يسمونه هنا وهو صغير.

قال الحاج فاتح:

- جهّزه يا أمّ صالح فسوف أخذه معي اليوم.. إذا سمحتم..

سأل أبو صالح:

- لمّ العجلة يا حاج؟ الدنيا صيف، والأولاد الآن في العطلة الصيفية.

قال الحاج فاتح:

أريد أن يعمل دورة على القراءة والكتابة.

فصاحت أم صالح:

- إنه أعمى يا حاج..

قال الحاج فاتح:

سيعمل دورة على طريقة برايل..

وعندما استوضح أبو صالح عن طريقة برايل، قال:

هذه الطريقة خاصة بالمكفوفين.. تعلمهم القراءة والكتابة.. وهي تقوم على تحويل الحروف الهجائية إلى نظام حسّي ملموس من النقاط البارزة التي تتشكل بدلاً من الحروف الهجائية، هل تفهم ما أقول يا أبا صالح؟

ابتسم أبو صالح وهو يقول:

- أكون كاذباً إذا قلت لك: إني فهمت شيئاً مما تقول.

فابتسم الحاج فاتح وقال:

أنا أيضاً لم أفهم ما قيل لي عن هذه الطريقة، إلى أن رأيته بعيني هاتين.

قال أبو صالح باهتمام، وقد فتح عينيه وأذنيه وعقله جيداً:

- اشرحها لي يا حاج فاتح أرجوك.. أنا لا أصدق أن الأعمى يقرأ ويكتب وهو بلا عينين... كيف يا حاج أرجوك؟

قال الحاج فاتح:

- هناك آلة بسيطة مثل المسطرة.. هل تعرف المسطرة؟

طبعاً أعرفها..

- مسطرة معدنية مثقوبة عدة ثقوب... ومعها مخرز بدلاً من القلم، بهذا المخرز يكتب أو سوف يكتب ابنك صالح.

- تعني الشيخ صالح.

- عفواً عفواً.. الشيخ صالح، سوف يثبت المسطرة على ورق كرتون... ورق سميك، بمثبتين على اليمين وعلى الشمال، ثم يمسك بالمخرز، ويكتب ما يريد.

أدارها أبو صالح بعقله، فلم يستوعبها، فقال:

- وهل في رأس المخرز حبر أم رصاصه يكتب بها؟

- ابتسم الحاج فاتح، وتابع شرحه لطريقة برايل:

- ليس بالمخرز ولا في رأسه حبر أو رصاص، إنما يفرز الشيخ صالح المخرز في تلك الثقوب، فيثقب الكرتون أو الورقة التي تحت المسطرة، ولكل حرف رمز من تلك الثقوب، فالثقب في أعلى اليسار يساوي ألفاً، والنقطتان فوق بعضهما على اليسار تعني باء، والنقطتان الأفقيتان في الأعلى تعنيان سينا، وهكذا..

قال أبو صالح:

- وكيف يرى صالح تلك النقاط حتى يقرأها، فهمني يا حاج فاتح أرجوك

قال الحاج فاتح:

- إن ابنك سوف يقرأها باللمس... باللمس يا أبا صالح..

قال أبو صالح وهو ينهض من مجلسه على الطراحة:

- سوف آتيك بالمصحف، وسوف تغمض عينيك، وتلمس حروفه بأصابعك، وسوف أرى ما إذا كانت أناملك تميز النقاط من الحروف.

أمسك الحاج فاتح بيد صاحبه أبي صالح، وجزه إلى مقعده وهو يقول:

- اجلس يا أبا صالح.. اجلس لأشرح لك..

وبعد أن جلس الرجل قال الحاج:

- إذا غرزنا المخرز بالورقة، ولمسنا ظهر الورقة، أفلا نحس بأن هناك ثقباً؟

- بلى.

- هذا الثقب نقطة، والثقبان نقطتان، وهكذا يمر القارئ الكفيف برؤوس أنامله على تلك الثقوب التي تعني حروفاً، والحروف تشكل كلمات يقرأها الكفيف بسهولة ويسر.

قال أبو صالح في استتكار:

- لا يا حاج ... ليس هناك سهولة ولا يسر، بل هناك ما يحزنون.. وأنا مستعد الآن أن آتيك بكرتونة ومخرز لتثقبها به، ثم لتقرأها أمامي ولو بصعوبة وعسر.

فاستغرق الحاج فاتح في الضحك ثم قال بعد أن سكت عن الضحك:

يا أبا صالح، يا حبيبي... طبعاً لا أستطيع قراءتها.. هل تعرف لماذا؟

- طبعاً أعرف .. لأنها لا تُقرأ.

قال الحاج ضاحكاً:

- هذا صحيح .. لا تُقرأ .. لماذا؟ خرابش... مجرد ثقوب خالية من أي دلالة .. ولذلك سوف يدخل الشيخ صالح دورة مع عدد من الأكفاء ليتعلم الكتابة والقراءة بهذه الطريقة التي اسمها؟

قال أبو صالح:

- نسيت اسمها .

- قال الحاج فاتح:

- احفظ اسمها جيداً يا أبا صالح، واحذر أن تنساه.. اسمها: طريقة برايل لتعليم المكفوفين القراءة والكتابة.

قال أبو صالح:

- لا أستطيع أن أحفظ اسمها إلا بعد أن يتعلمها ولدي الشيخ صالح ويعلمني إياها .

- وماذا تعمل بها، وأنت ذو عيين واسعتين؟!

- حتى أذاكر مع الشيخ صالح، لأعرف مدى حفظه وفهمه، ولأطمئن إلى إملائه، فأكثر الأولاد وحتى الكبار الآن يغلطون في الإملاء.



الفصل الثاني

لم تمض أيام على وجود الشيخ صالح في المعهد الشرعي، حتى لفت إليه انتباه الطلاب والمشايخ، وكان محط الأنظار، ولا يناديه أحد إلا باسم الشيخ صالح.. هذا الفتى الضريّر الذي عمل دورة في القراءة والكتابة على طريقة (برايل Braille) التي تجعل الأعمى كالبصير في القراءة والكتابة، كانوا ينظرون بإعجاب إليه وإلى مسطّرتّه المعدنية المثقّبة، ومخرّزه الذي هو القلم الذي يكتب به عبر ثقوب تلك المسطرة، على أوراق غليظة كالكرتون.

تجمّع الطلاب حول الشيخ صالح مرّة، وانطلق هذا يشرح لزملائه الطلاب كيف يمكنه أن يكتب ويقرأ... كتب بعض العبارات، ثم عاد يقرؤها عن طريق اللمس، والطلاب الصغار مندهشون لما يفعله الشيخ صالح.. حضر مدرّس التفسير، فوجد الطلاب متجمعين حول الشيخ صالح، دق بجميع يده على المنضدة.. صاح بالطلاب ليجلسوا في أماكنهم، ولكنهم لم ينتبهوا، واستمروا في صياحهم وإبداء إعجابهم بما يفعله الشيخ صالح الذي كان يحاول - عبثاً - تهدئتهم والانتباه لحضور الأستاذ.

صرخ الشيخ عبدالرحمن بالطلاب، فأسرعوا إلى أماكنهم، وظهر الشيخ صالح مع مسطّرتّه وقلمه وأوراقه السميكّة وقد وضع مجلداً ضخماً أمامه.

سأله الشيخ عبدالرحمن بغضب:

- ما هذه الفوضى يا شيخ صالح؟ ماذا يفعل هؤلاء العفاريّات عندك؟ وما هذه الأدوات المعدنية التي تضعها أمامك، وما هذا المجلد الكبير الذي تضمه إلى صدرك؟ أجب يا صالح.. أجب...

صعد الدم إلى أذني صالح ووجنتيه الناصعتي البيضاء حتى غدت كالوردات الجورية الحمراء.. نهض عن مقعده ثم قال في أدب:

- كانوا (يتفرجون) على آلتى الكاتبة هذه.

ورفع يديه مسطرتة المعدنية وقلمه المخزى، ثم تابع:

- وكنت أشرح لهم كيف أكتب بها، وكيف أقرأ.

سأل الشيخ عبدالرحمن:

- هل تستطيع أن تكتب وتقرأ بواسطة هذه الحديد، وهذا المخز
يا صالح؟ أم أنك تضحك على زملائك، وتسخر من ثقتهم بك؟

قال صالح فى ألم:

- معاذ الله يا أستاذى أن أكون من الساخرين، وقد نهانا الله تعالى
عن السخرية فقال، بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله
الرحمن الرحيم: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ عَسَى
أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ﴾ وأنا أظنهم خيراً منى.

نزل الشيخ عبدالرحمن من المنصة التى يجلس عليها، وتقدم من
صالح، وأخذ بيده المسطرة والمخز، وقلبهما بين يديه، ثم جسّ
الورق السميك، وهو يقول:

- أنت تكتب بهذه وهذه على هذا الورق يا صالح؟

- فهزّ صالح رأسه وهو يقول:

نعم يا أستاذ.

قال الأستاذ وهو يعيد ما بيده إلى صالح:

- خذها واكتب أمامى.

قال الطالب عبدالله:

- صدِّقه يا أستاذ، فقد رأيناها وهو يكتب، ثم وهو يقرأ ما يكتب.
صرخ الأستاذ بالطلاب الذين أمَّنوا على كلام زميلهم، ثم قال
لصالح:

- اكتب أمامي.

قال أحمد:

- على مبدأ «ولكن ليطمئن قلبي»، أليس كذلك يا أستاذ؟

فرماه الأستاذ بنظرة غضوب، ثم قال لصالح:

- اكتب يا صالح..

- ماذا أكتب؟

- اكتب سورة الإخلاص.

اشرأبت الأعناق نحو كفّ الشيخ صالح، حتى إذا انتهى من كتابة
سورة الإخلاص، قال له الشيخ:

- اقرأها يا شيخ صالح.

- ابتسم الشيخ صالح، وهو يلمس بأطراف أنامله ما كتب، وقرأ
ما كتب.

أخذ الشيخ عبدالرحمن الورقة بين يديه، ولمسها بأنامله، فأحسَّ
بأنها ثقوب مدبّية، كتلك التي تظهر خلف الورقة التي تغرز بها
دبوساً.. ثم قال:

- كيف عرفت قراءتها؟

قال عليّ:

– لأنه يحفظ سورة الإخلاص وأختيها يا أستاذ.

حدّجه الأستاذ بتأنيب:

– اسكّ أنت..

ولكنّ علياً زرع الشك في نفس الأستاذ، فقال لصالح:

– اكتب ما أمليه عليك..

وأشار إلى غسان أن يكتب سرّاً ما سوف يمليه على صالح.

ركز صالح مسطرته على أوراقه، وضبطها جيداً بمثبتين عن يمين
وشمال، ثم قال:

– تفضّل يا أستاذ.

أملّى عليه الشيخ صفحة كاملة، ثم طلب منه أن يقرأها له، فقرأها
كما أملاها الشيخ، وغسّان يتابع ما يقرأ، ويهزّ رأسه للشيخ، كأنه
يقول له: تمام يا أستاذ، قال الشيخ:

– طيّب طيّب يا شيخ صالح، جميل جداً.

وأمسك بالمجلد بين يديه، فسأله الشيخ صالح:

– هل أنت متوضّئ يا أستاذ؟

نعم أنا على وضوء.. ولكن.. لماذا هذا السؤال؟

– لأن هذا مصحف.. مصحف كامل، مكتوب بطريقة برايل.

قلّب الشيخ أوراق المصحف.. لمس حروفه بأنامله،.. أغمض عينيّه، وهو يلامس الحروف أو الفتوات البارزة، وكان الطلاب يتابعون الأستاذ فيما يقول ويفعل، وعندما رأوه يغمض عينيّه انفجروا ضاحكين.

صرخ فيهم الأستاذ، ثم انفجر هو ضاحكاً وهو يقول:

- إذا كنت لم أستطع أن أقرأ وأنا مفتوح العينين، فهل أستطيع أن أقرأ وأنا مغمض العينين؟! من حقّكم أن تضحكوا، ولكنّ.. بأدب.

ثم طلب من الشيخ صالح أن يفتح المجلد عشوائياً، ففتح صالح المجلد وهو يقول:

- تعني هذا المصحف يا أستاذ؟

- قال الأستاذ:

- نعم .. اقرأ من هنا..

ووضع أصبع الشيخ صالح على مكان أسفل الصفحة، فقرأ صالح آخر كلمة في الآية، ثم تابع القراءة .

سأله الشيخ:

- أي سورة هذه يا شيخ صالح؟

- رفع صالح كفّه إلى أعلى الصفحة، ومرّ بأنامله على ما هو مكتوب فيها وقال:

- هذه سورة المائدة.

ثم نزل بيده إلى المكان الذي كان يقرأ فيه، وقال:

- نحن نقرأ الآية الثانية والتسعين.

قال الأستاذ:

- أعطوني المصحف.

فامتدت إليه أكثر من ثلاثين يداً تقدّم له المصحف.

أخذ الأستاذ مصحفاً، وفتح على سورة المائدة وعلى الآية الثانية والتسعين وأمر الشيخ صالحاً بالقراءة، فتلا الشيخ صالح صفحة كاملة بصوته العذب، وترتيله الجميل، وكان كلما توقّف عن القراءة، هتف الطلاب: الله. فنبه الشيخ تلاميذه إلى أن هذا الذي يفعلونه غير وارد، والأولى بهم أن يستمعوا وينصتوا ويتأملوا ويتفكروا ويخشعوا، فلزم الطلاب الصمت، حتى أنهى صالح تلاوته، وبعضهم في حالة انتشاء، وبعض آخر بلغ به التأثر حدّ البكاء خشوعاً وخوفاً وطمعاً.

استوقف الأستاذ تلميذه صالحاً عن التلاوة، ثم قال له:

- سيكون لك شأن يا شيخ صالح، فاتّق الله ولا تبطر.

قال صالح في ثقة:

- لن تبطرني نعمة يا أستاذ، فأنا أعرف نفسي... أنا ولد أعمى، رزقه الله هذا المعهد العظيم، وهياً له شيوخاً فضلاء وزملاء نجباء.. أنا لن أبطر.

قال غسان:

- حتى لو صرت وزيراً كطه حسين؟

أجاب صالح:

- حتى لو صرت وزيراً يا أخي فسوف أبقى أذكر نشأتي الأولى في قريتي الفقيرة، وأسرتي المستورة الحال..

قال الشيخ عبدالرحمن في تأثر:

- بارك الله فيك يا ولدي.

ثم عاد إلى منصته، وجلس خلف منضدته وقال:

- نبدأ الآن درسنا.

شرع الشيخ عبدالرحمن يلقي درسه في التفسير، وكان درس اليوم تفسير سورة (عبس) طلب من صالح أن يقرأ السورة.. تتحنح صالح، ثم انطلق يقرأ، فقال له الأستاذ:

- اقرأ من المصحف الذي معك يا شيخ صالح.

فقال عبد الله:

- الشيخ صالح يحفظ القرآن كله يا أستاذ.

واری الأستاذ ابتسامته خلف تقطية مفتعلة، وقال:

- أعرف أنه يحفظ كتاب الله، ولكن هذا درس... ثم.. ما الذي يدعوك إلى الكلام عنه؟ أليس له لسان يتكلم به؟

فقال علي:

- الشيخ صالح، وعبد الله، وأحمد، وأنا، متكافلون متضامنون يا أستاذ.

أشرق وجه الأستاذ المُشرب بحمرة قانية، ثم قال:

- يعني ... عصابة.

فقال صالح:

- كعصابة أهل بدر يا أستاذ، وقد دعا رسول الله -صلى الله عليه وسلم - لتلك العصابة ..

- لتلك العصابة .. وليس لعصابتكم.

- الله أعلم .. ولكنني أظن أنني وأفراد العصابة، امتداد لعصابة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

لاحظ الأستاذ فصاحة الشيخ صالح وثقافته، فسأله:

- من أين لك هذه الفصاحة ياشيخ صالح؟

قال صالح:

- إمام قريتنا طالب علم مجتهد، وقد درست على يديه كتاب (قطر الندى) ثم بدأ بألفية ابن مالك وشرح ابن عقيل، وقبل أن نتوغل فيها، جيء بي إلى هذا المعهد الأغرّ ..

- هل قرأت شيئاً من كتب الأدب؟

- نعم ... قرأت كتاب (نكت الهميان في نكت العميان) للصالح الصفدي، ثم كتاب (الكامل) للمبرد، و(البيان والتبيين) للجاحظ، وغيرها من الكتب العصرية، لعلي الجارم، وطه حسين، والرافعي وبالكثير، وسواهم.

- ما شاء الله ما شاء الله .. وفهمتها؟

قال صالح، وظلُّ ابتسامة يرتسم على شفثيه القرمزيتين:

- لماذا أقرؤها، إذا كنت لا أفهمها؟

- كم عمرك يا شيخ صالح؟

- أشرفت على عامي الثالث عشر.

- بارك الله فيك يا ولدي.. والآن افتح مصحفك، واقرأ لنا سورة (عبس) بترتيلك الجميل.

قرأ صالح سورة عبس، وتألق الأستاذ في تفسيرها، وما يؤخذ منها من دروس وعبر.. كان يشرح ويفسر، وعيناه على تلميذه صالح، الذي كان يكثر من الأسئلة حول عبد الله بن أم مكتوم، كأنه كان يرغب في معرفة شيء عن حياته، وكان الأستاذ يجيبه إلى ما يطلب، وكان ما قاله له عن ابن أم مكتوم رضي الله عنه:

- اسمه عمرو بن أم مكتوم، ولكنه معروف باسم عبد الله، وهو من بني فِهر، أسلم في مكة المكرمة، وكان ثاني من هاجر إلى المدينة بعد مصعب بن عمير، وصار يعلم الناس القرآن الكريم مع مصعب.

وعندما هاجر النبي الكريم صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، صار المؤذن الثاني بعد بلال رضي الله عنه، وكان رسول الله يقول لأصحابه الكرام في رمضان:

«إِنَّ بِلَالاً يُؤذِّنُ بَلِيلٌ، فَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى تَسْمَعُوا أَذَانَ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ».

وعندما سأل صالح:

- وماذا عن سبب نزول هذه الآيات في أوائل سورة عبس؟

أجاب الأستاذ:

- أتى عبدالله بن أمّ مكتوم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان عنده أحد عظماء قريش، كان النبيّ يدعوّه إلى الإسلام، ويطمع في إسلامه، وكان عبدالله ممن أسلم قديماً.. أقبل على النبيّ، وانطلق لسانه يسأل النبيّ عن بعض أمور دينه، ويلجّ في السؤال، والنبيّ مشغول بذلك القرشيّ المشرك، وتمنى لو يكف ابن أم مكتوم عن السؤال حتى ينتهي من مخاطبة ذلك الرجل، ودعوته، ولكنّ ابن أمّ مكتوم كان حريصاً على أن يجيبه النبيّ -صلى الله عليه وسلم-، الأمر الذي جعل النبيّ الكريم يعبس في وجهه، ويعرض عنه لحظة، ويقبل نحو الآخر، فأنزل الله هذه الآيات معاتباً رسول الله.

فهتف الطلاب: صلى الله عليه وسلم.

وتابع الأستاذ:

- فكان النبيّ صلى الله عليه وسلم بعد ذلك يكرمه، ويقول له:

(مرحباً بمن عاتبني فيه ربي).

قال الطالب عبدالله:

- مع أن ابن أمّ مكتوم أعمى، ولا يرى عبوس النبيّ الكريم.. مع ذلك، يعاتبه ربّه؟ أنا تلقيت درساً عظيماً من هذه الآيات... تعلمت الذوق.. الذوق الرفيع في التعامل مع الآخرين، مهما كانوا ضعفاء، ومهما كنت قوياً وعظيماً.

- وكيف انتهت حياته يا أستاذي الفاضل؟

أجاب الأستاذ:

- رآه أنس بن مالك في معركة القادسية العظيمة، وعليه درع، ومعه راية سوداء يحملها، وقد استشهد في تلك المعركة التاريخية الفاصلة

التي انتصر فيها المسلمون على الفرس انتصاراً أزال دولتهم، وفتح
المشرق كله أمام جيوش المسلمين.

فعلق غسان:

- وسوف يرزقك الله الشهادة يا شيخ صالح.

فقال صالح:

- أرجو ذلك.. أرجو ذلك، فليس أعظم من الشهادة في سبيل الله
تعالى يا صاحبي.

قال غسان ضاحكاً:

- أعني الشهادة الشرعية لهذا المعهد، وليس الشهادة في سبيل
الله.

- ولماذا لا تدعولي أن يرزقني الله الشهادة في سبيله؟ فهي
الشهادة الحقيقية، وأما شهادة المعهد وغيرها من الشهادات العلمية،
فلا قيمة لها عندي.

قال أحمد:

- كيف يا شيخ صالح، ومداد العلماء يوزن بدماء الشهداء؟

قال صالح:

- أرجو أن أنال شرف العلم وشرف الشهادة في سبيل الله، كما
نال ابن أم مكتوم شرف صحبة رسول الله - صلى الله عليه وسلم-،
وشرف العلم، وشرف الشهادة في سبيل الله تعالى.



الفصل الثالث

مرت الأيام والسُّنُون، والشيخ صالح يحقق نجاحاً تلو نجاح... كان دائماً الأول على صفّه.. كان جسمه ينمو نمواً عجيباً، حتى صار فارغ الطول، مديد القامة، وكان نظيف اللباس، أنيق الهندام، يصفف شعره بيده، ويلمّع حذاءه، ويكوي ملابسه، ويتعطر، ولا يخرج من المهجع إلا في كامل أناقته، وكان يخدم نفسه وأساتذته وزملاءه، تدفعه مروءته وذوقه الرفيع إلى تقديم العون إلى من يعرف ومن لا يعرف، حتى غدا علماً في المعهد الشرعي.

وكان لا يغيب عن الحاج فاتح، ولا ينسى له فضله، وكذلك الأمر بالنسبة للحاج فاتح.. كان يصدق عليه.. يعطيه مصروفه الشهري في الأول من كل شهر، ويشترى له اللباس الشتوي، كما يشتري له اللباس الصيفي، ويقول للشيخ صالح ملاطفاً ومخففاً:

- سوف أسترد منك ما أدفعه لك.. أنا أسجل كل شيء.. فاطمئن.

فيحمرّ وجه صالح حياء، ويقول للحاج فاتح:

- وأنا لن أنسى معروفك هذا يا عمّي، وأرجو من الله القدير أن يقدرني على الوفاء، يا أبا النخوة والكرم.



ذات يوم، زار المدرسة وزير المعارف، وتفقد الطلاب في صفوفهم، ولاحظ الفتى صالحاً بين الطلاب، فسأل أستاذه:

- هل هذا طالب؟

- قال الأستاذ في ارتباك:

- هذا طالب مستمع.

فتنهض صالح وقال:

- عفواً يا معالي الوزير، أنا طالب نظامي كسائر الطلاب، وأنا الأول على صفي... أمضيت ستّ سنين في هذا المعهد الكريم، وأنا الأول عليهم، وفي سائر المواد.

اقترب الوزير ومرافقاه من صالح، ووضع كفّه على كتفه، وهزّه، ثم قال:

- ما اسمك يا بنيّ؟

- صالح المزرعاوي، ويدعونني بالشيخ صالح منذ كنت صغيراً في قرיתי.

سأل الوزير:

- من أي قرية أنت؟

- من قرية (الطيبة)، هل سمعت بها يا معالي الوزير؟

قال الوزير:

- بل أعرفها جيّداً وأعرف أهلها.

ابتسم صالح ابتسامة عريضة، وهو يقول:

- وأنا أعرفك يا معالي الوزير.. لقد زرت مزرعتك في قريتنا قبل عشر سنين، وقد ضايقتك أولاد القرية وهم يلاحقون سيارتك حتى كدت تعود إلى المدينة لولا...

تابع الوزير:

- لولا أن زوجتي رأتك تحيينا بيدك ولسانك.

تابع صالح:

- وعندما رأته أعمى، نزلت من السيارة مع ابنها الصغير الرقيق، ودست في جيبى بعض المال.

قال الوزير:

- فرفضت أن تقبله منها، وأعدته إليها.

قال صالح:

- ولكنى تراجعته وأخذته من طفلك الرائع (حسان)

قال الوزير:

- وما يزال (حسان) يفخر على أمه بأنك رفضت هديتها وقبلت الهدية منه.

قال صالح:

- ظننتكم نسيتم هذه الحادثة العابرة يامعالي الوزير، فقد مرت عليها عشر سنين.

قال الوزير:

بعض الحوادث يا ولدي لا يمكنك أن تتساها، مع أنها تبدو صغيرة.. لأنها تترك في النفوس أثراً لا تمحوه الأيام..

قال صالح:

- أرجو لكم كل خير، وأبقاكم الله ذخراً للمروءة والكرم.

فقال أحد المرافقين:

- وللشعب والوطن.

قال صالح:

- وللشعب والوطن.

تقدّم المرافق الثاني للوزير، ودسّ في جيب صالح بعض النقود، فغضب صالح، وأعادها إليه وهو يقول:

- عفواً، يا أستاذ، أنا لا أقبل صدقة.

تقدّم الأستاذ المدرس وقال:

- لا يا صالح.. النبيّ -صلى الله عليه وسلم- كان يقبل الهدية.. خذها من السيد معاون معالي الوزير:

هز صالح رأسه، وأبدى أسفه لهذه المقارنة بين الصدقة وبين الهدية التي كان يقبلها الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم قال:

-إذا أحب معالي الوزير أن يخصص لي راتباً شهرياً، مهما كان ضئيلاً فإنني أتقبله، وأشكره على ذلك، أمّا الصدقات، فلا أقبلها.

قال الوزير:

- سوف ننظر في الأمر، أمّا الآن، فأرجو أن تقبل هدية السيد معاون. وهي ليست صدقة، إنها هدية.

نهض غسان وقال:

- اسمع يا شيخ صالح، إذا لم تأخذها أنت، أخذتها أنا.

فضحك الطلاب وضجّوا، وحاول الأستاذ تهدئتهم، فقال له الوزير:

- دعهم يا فضيلة الشيخ، دعهم.

بعد أيام دخل الموجه إلى الصف، واصطحب معه الشيخ صالحاً إلى الإدارة، حيث سائق الوزير مع مدير المعهد يتحدثان حول صالح، رحّب السائق بصالح، ثم قال له:

- معالي الوزير يسلم عليك، ويدعوك إلى الغداء في بيته اليوم.

فوجئ صالح بهذه الدعوة، ولكن قلبه كان يرقص من الفرح، فما كان يحلم أن يدعوه أحد أساتذته إلى بيته، فكيف بالوزير نفسه؟ لكن... لماذا هذه الدعوة؟ ماذا وراءها؟ هل هي للعطف عليّ، أم لإكرام العلم وطلاب العلم؟ أم أنه قصّ على زوجته ما جرى، فطلبت هي أو أبنائها أو كلاهما، أن يدعوني إلى الغداء.

لكن.. من أنا؟ ومن أكون حتى يفكر بي هؤلاء؟ لابد أن في الأمر سرّاً... صحيح أنني طالب متفوق على زملائي، وربما كنت أذكى منهم جميعاً، ولكن هذا ليس مسوّغاً لمعالي الوزير ليدعوني إلى بيته... وفيما كان الشيخ صالح سارحاً مع خياله، ردّه السائق إلى واقعه، عندما أمسك بذراعه، ليسحبه إلى السيارة الفارهة التي تنتظر أمام باب المعهد.

سحب الشيخ صالح يده، وتحلّز من قبضة السائق، وهو يقول:

- دع ذراعي، فأنا أعرف طريقي.

عجب السائق من هذا التلميذ الأعمى، كيف يسير بلا عكاز، ولا قائد يقوده إلى حيث يريد، وسار إلى جانبه، وهو ينظر إليه، فرآه يمشي كأي بصير.. يمشي بثقة، ويتحدث بثقة، رافعاً رأسه، ناصباً قامته، معتداً بنفسه، حتى لا يستطيع من لا يعرفه أن يميزه من سائر زملائه، خاصة بعد أن يضع نظارته السوداء على عينيه.

في بيت الوزير كان الوزير وابنه حسان في انتظار الضيف، وعندما سمعا صوت السيارة، بادرا إلى الخروج، ليستقبلاه في الحديقة بلهفة، والوزير يتابع ولده بنظراته.

لقد بدا صالح أكبر مما عرفه حسان.. طويلاً، وسيماً، نظيفاً، مرتّباً، تسبقه رائحة عطره، وفرح لوجود النظارة على عينيه، حتى لا يرى عينيه الغائرتين المطبقتين، فيزداد حزنه عليه لهذا التشوه الذي لا يد له فيه، فقد وُلد معه... وُلد هكذا...

جلس صالح على أريكة فخمة، وجلس الوزير على يمينه، وحسان على يساره، يرحّب به، وهو يجيب على ترحيبه بكلمات مقتضيات واثقات.. كانت كقطرات الشهد تخرج من بين شفثيه.

قال الوزير:

- حدثت حسان عنك، فأصرّ على أن ندعوك إلى الغداء اليوم.

قال صالح:

- أنا سعيد جداً باهتمامكم بشخصي الضعيف يا معالي الوزير.

قالت أم حسان:

- بل نحن السعداء بك يا ولدي.. والله منذ رأيته قبل عشر سنين، وأنا أحنّ إلى لقاءك.. ما زالت كلماتك الحلوة الطفولية ترنّ في أذني... وما زلت مندهشة من قوّة إحساسك، ومن ثقته بنفسك، ومن حسن أدبك، وروعة تصرفك معنا، ومحاولتك تقديم المساعدة لنا، وأنت لا تعرفنا، ونحن لا نعرفك.

- قال الوزير:

- على مهلك على الشيخ صالح يا أم حسان، يكاد حياؤه يقضي عليه.

قال صالح في حياء:

- نحن في القرية هكذا يا سيدتي، نخدم من نعرف ومن لانعرف، فكيف إذا كان من نخدمهم مثلكم، في الذوق، والكرم، وحبّ المساكين من أمثالي.

قال الوزير:

- لن تكون فقيراً ولا مسكيناً يا شيخ صالح بعد اليوم، بإذن الله وفضله.

- كيف؟

- سوف نخصص لك راتباً شهرياً يعينك على حياتك في المعهد الشرعي.

- وبعد المعهد الشرعي؟

- تدخل الجامعة إن شاء الله، وسوف يزداد راتبك.

قال صالح في حياء جمّ:

- بارك الله فيك يا معالي الوزير.

- قال الوزير:

- ولديّ مفاجأة سارة لك.. تعال معي..

أخذ الوزير بيد صالح، وتقدّم به بضع خطوات، ثم وضع يده على صندوق كرتوني، وقال له:

- هذه أحدث آلة كاتبة على طريقة برايل.. إنها هدية لك.

قال صالح:

- كم أنا سعيد بكم يا معالي الوزير، فقد قرأت في مجلتنا عن ظهور آلة كاتبة بمواصفات عالية اسمها (بيركنز) دعوت في سرّي أن يرزقني الله مثلها .

قالت أمّ حسان:

- واستجاب الله دعاءك يا ولدي.

وقال حسان:

- ليتك دعوت بما هو أكبر منها .

فابتسم صالح ابتسامة عريضة، وقال:

- طموحاتي كثيرة، وكبيرة، والناس يقولون: العين بصيرة واليد قصيرة، أما أنا ..

فقاطعه الوزير:

- لا تكمل يا ولدي. نحن عيناك، ونحن يداك، فلا تبتئس.

قال صالح، وقد فرّرت دموعات من عينيه المطفأتين:

- قالت لي أمّي مرّة: إذا رأيت ليلة القدر، فسوف أدعو الله أن يرزقك عينين جميلتين.. ويبدو لي أنها ليلة القدر، ودعتُ لي.

قالت أم حسان:

- ما رأيكم في زيارة أم صالح؟

قال صالح:

- ولكنها في القرية.

قالت أم حسان:

- نزورها، ثم نذهب جميعاً إلى المزرعة.. اتفقنا؟

قال الوزير وابنه:

- اتفقنا...

وقال صالح في تردد:

- أهلاً بكم، وإن كان المقام لا يسمح.

قال الوزير:

- أيّ مقام يا شيخ صالح.. نحن نعتزّ بك.. وسوف يكون لك مستقبل رائع إن شاء الله.

قالت أم حسان:

- ما رأيكم في استكمال الحديث على المائدة؟ فالطعام جاهز.

وعلى المائدة كان صالح يأكل بذوق رفيع، وحسب الأصول المتبعة في الأسر الراقية.. كان يستخدم الشوكة والسكين بمهارة، وهو ما لفت أنظارهم إليه.. كانت تُقدّم له ألوان الطعام، فيتناول منها القليل، ولم يكن مضطرباً أو خجلاً أو خائفاً من أن يرتكب ما يسيء إليه أثناء الطعام. وكان تناوله للفواكه في منتهى الذوق.

قالت أم حسان في سرّها:

«ما هذا الصبي؟ يبدو أكبر من سنّه، وأنه ينحدر من أسرة عريقة، من سكان القصور، وليس من أسرة فقيرة.. ما أفهمه.. ما أرفع ذوقه.. يا حسرة عليه.. ليت كان بصيراً».

وجاء الشاي، تناول كأسه، ووضعه أمامه دون أن يُحدث أي صوت، ثم حرك السكر بالملعقة بهدوء، ثم رشف رشفات منه دون أن يصدر عن شربه أي صوت.. فازداد إعجاب الأسرة الراقية بحسن تصرّفه على المائدة، وفي تناول الفاكهة، وشرب الشاي.

سأل الوزير:

- ما هي طموحاتك يا شيخ صالح؟

ابتسم صالح وقال:

- دعك منها ياسيّد الوزير، فهي كثيرة، ومتعبة.

- مثل ماذا؟

- يعني .. أنا أطمح أن أكمل دراستي العالية.

فقالت أم حسان:

- وتصبح دكتوراً قدّ الدنيا.

فقال صالح:

- أو أكثر!

فضحك الجميع بصوت عال، إلا صالحاً، فقد تبسّم ضاحكاً، دون أن يُسمّع له صوت.

سأل الوزير:

- ثم ماذا؟

أجاب صالح:

- قريتي فقيرة، وأكثر أهلها بائسون، أميون.. أتمنى أن تكون فيها مدرسة حتى يتعلم أطفالها فيها، ومدرسة ليلية يتعلم فيها الكبار، لنقضي على الأمية.

قال الوزير:

- سوف نبني فيها مدرسة ابتدائية للصغار، ولكن المدرسة الليلية مشكلة، تحتاج إلى من يرعاها.

قال صالح بفرح:

- معلم المدرسة يدرّس الكبار في المساء، لقاء راتب أو تعويض مناسب نجّمه من أهل القرية، وسوف يساعده إمام المسجد.. ما رأيك يا معالي الوزير؟

قال الوزير بفرح:

- لك هذا أيها الفتى النبيل... ثم ماذا؟

قال:

- قرب معهدنا دكان صغير، لرجل أعمى، يصنع كراسي قش صغيرة... ليأتي أستطيع أن أفتح دكاناً مثله في قريتي.

سأل الوزير:

- هل في قريتك...؟

فأكمل صالح:

- في قريتي أربعة عميان كبار، لا عمل لهم، ولهم أسر وعائلات، ولو تعلموا صناعة كراسي القش، لكان لهم دخل يُنفقون منه على عائلاتهم.

قال الوزير:

- الأمر بسيط .. عندما نزور القرية، نشتري أرضاً، ونعمر عليها دكاناً، ونطلب من الرجل الكفيف الذي يصنع الكراسي هنا، أن يقيم في القرية أياماً، يعلم فيها أولئك الأكفاء صناعة الكراسي .. وسوف نشتري لهم ما يلزمهم من عدة، ومن قش وخشب وسواها إن شاء الله تعالى.

قال صالح في فرح:

- وسوف أسافر إلى القرية كل خميس، لأعلم المكفوفين القراءة والكتابة.

قال الوزير:

- وسوف نشتري لهم كل ما يلزم لتعليمهم إن شاء الله تعالى.

بلغ التأثير مداه في نفس الشيخ صالح، وظهر الانفعال على وجهه، ثم رفع يديه إلى السماء، وابتهل إلى الله بهذا الدعاء الذي خرج من صميم قلبه. قال:

- يا رب... أنت العليم بحالي، أنا العبد الفقير القليل الضعيف..

يا رب.. أنت تعلم أنني ما طلبت شيئاً لنفسي، وكل ما طلبته لأهل قريتي المساكين، ولأقراني من المكفوفين البائسين.

يارب .. أنت الذي هيأت لعبدك الأعمى صالح هذا الرجل الصالح، هذا الوزير الرائع الذي أغدق عليّ وعلى أهل قريتي ما أنت به عليم.. اللهم فاجزه عنا كل خير.. متّع وأهله وكل من يحبّ، بالصحة والعافية، وأغدق عليه أضعاف أضعاف ما أغدق علينا..

اللهم أكرمه كما أكرمني، بل أكثر.

اللهم زده من المال الحلال، فقد قال نبيك وحبیبنا صلی الله علیه وسلم: «نعم المال الصالح للرجل الصالح» وأشهد أنه من الصالحين.

اللهم ارفع شأنه عندك وعند الناس.. يا أرحم الراحمين... يا أكرم الأكرمين.. يا خير مسؤول..

وتهدج صوت صالح، فاخترت الكلمات، وأفصحت الدموع عما يجول في نفس هذا الفتى الذي يحب الخير لإخوانه وأهل قريته وللناس، كما يحبه لنفسه.



الفصل الرابع

صبيحة يوم الجمعة، توجّهت سيارتان فارهتان إلى قرية (الطيبة) في إحداهما كان الوزير وأهله، وفي الثانية كان الحاج فاتح وابنه فؤاد، وصالح.

كان الحاج فاتح وولده والشيخ صالح قد وقفوا في ساحة القرية، لاستقبال الوزير الذي ترجّل من سيارته، فأسرعوا نحوه مرحّبين.

حمل سائق الوزير الهدايا التي جاء بها الوزير إلى أسرة صالح، وسار خلف الوزير وصحبه، وبعد أن وضعها في منزل أبي صالح، عاد إلى السيارة ليتابع طريقه إلى المزرعة القريبة من القرية مع الأسرة، وبقي الوزير مع أصحابه.

رحّب أبو صالح بالضيوف أجمل ترحيب، وكان التأثر بادياً في كلمته وعلى تقاسيم وجهه المغضّن، ثم توجّه إلى الحاج فاتح وقال:

- يا حاج فاتح.. ما كل هذه الهدايا؟

فسارع الحاج فاتح إلى القول:

- هذه هدايا معالي الوزير يا أبا صالح.

عندها عرف أبو صالح أن الرجل الغريب وزير، وليس أخ الحاج فاتح، فأقبل عليه مرحّباً من جديد، وقد أشرق وجهه المتعب، وضحكت تقاسيمه التي زادت الأيام من قساوتها.

- شكراً لكم يا معالي الوزير... كثرتم الخير كثر الله خيراتكم.

قال الوزير في حياء:

- عفواً يا أبا صالح... أشياء بسيطة أرجو أن تقبلوها.

التفت أبو صالح إلى ولده وقال:

- ما كان ينبغي أن تسمح لمعالي الوزير أن يكلف نفسه كل هذا .

قال صالح في حياء:

- ومن أكون أنا - يا أبي - حتى أسمح أو لا أسمح لمعالي الوزير؟
والله لو حمل كل ما في أسواق المدينة إلى هنا، لما تجرأت بالتقوّه
بكلمة.

قال أبو صالح:

- هذا صحيح يا ولدي.. ولكنّ..

قاطعه الوزير:

- دعنا من (لكنّ) يا أبا صالح، واطلب لنا فنجاناً من القهوة، فأنا
لم أشرب قهوة الصباح بعد.. أحببت أن نشربها معاً.

- وسوف تشرب أطيب قهوة، من أطيب يد... من يد الشيخ صالح
يا معالي الوزير.

التفت الوزير إلى صالح، فرآه ينهض مبتسماً وهو يقول:

- عمّي الحاج فاتح يحبّ قهوتي يا معالي الوزير، وأرجو أن
تعجبك.

ثم سار باتجاه المطبخ، وسار أبوه بضيوّفه إلى غرفة متواضعة،
ليس فيها كرسيّ، ولا منضدة..

جلسوا على الطرحات النظيفة المفروشة فوق حصير نظيف،
وأسندوا ظهورهم إلى وسائد نظيفة أيضاً.

قال أبو صالح في خجل:

- لا تؤاخذونا يا معالي الوزير، فنحن ناس بسطاء، فقراء، ولكننا نعجبكم إن شاء الله.

قال الوزير:

- فيكم البركة يا أبا صالح.

وقال الحاج فاتح:

- الفقر ليس عيباً يا أبا صالح.. لقد بذلت ما تستطيع، ولكن قسمتك هكذا.. وأنا أشهد أمام الله وأمام كل الناس، أنك لم تقصر في استصلاح أرضك، ولكن المحل ضرب المنطقة كلها.

قال أبو صالح:

- والله يا صديقي يا حاج فاتح، كنت أعمل أنا وزوجتي وبناتي وابني هذا الكفيف، ليل نهار، حتى سمّانا إمام الجامع عشاق الأرض، ولكن.. كما قلت: هذه هي قسمتنا، وهذا هو رزقنا الذي كتبه الله لنا.

ملأ صالح باب الغرفة وهو يلج، حاملاً صينية القهوة، وعليها ثلاثة فناجين من القهوة، وكأسان من الشاي، وسار حتى وقف أمام الوزير، وقال له:

- أهلاً بكم يا معالي الوزير في هذا البيت المتواضع.. تفضلوا.

ابتسم الوزير ابتسامة عريضة وهو يقول:

- هل لنا الشاي أو القهوة؟

- كلها لكم يا معالي الوزير، ولكنني رأيت أن أشرب الشاي أنا وصديقي فؤاد، بينما أنتم، يا معالي الوزير، تشربون القهوة.

التفت الحاج فاتح إلى ولده فؤاد وسأله:

- هل أنت طلبت الشاي يا فؤاد؟

أجاب فؤاد:

- لا يا أبي.

فالتفت إلى أبي صالح وقال له:

- بارك الله لك في هذا الفتى النجيب الشيخ صالح يا أبا صالح

ردّ أبو صالح:

- إنه ولدكم، وتربيتكم يا حاج فاتح.

قال الشيخ صالح:

- إذا سمحتم لي يا معالي الوزير، ويا عمي الحاج فاتح، ويا أبي
الحنون.. سوف نفطر بعد قليل.

قال الوزير:

- لا.. دعونا الآن من الفطور وغيره، نحن جئنا لمهمة معيّنة،
وأرغب في إنجازها اليوم.

سأل أبو صالح:

- نحن تحت أمرك يا معالي الوزير.

قال الحاج فاتح:

- فهمت من الشيخ صالح، في الطريق، أن معاليكم سوف تشترون أرضاً لبناء مدرسة عليها، وإلى جانبها دكان لتعليم المكفوفين هنا في القرية.

قال صالح:

- والقرى المجاورة يا عمي.

سأل أبو صالح:

- ماذا تعلمونهم؟

قال صالح:

في الليل نعلمهم كما أتعلم أنا، وفي النهار يتعلمون كيفية عمل كراسي القش، ثم كراسي الخيزران، وتصنيع المناضد الخشبية البسيطة.

سأل أبو صالح:

- ومن سيعلمهم؟

قال صالح:

- سوف تأتي.. عفواً... سوف يأمر معالي الوزير بجلب من يعلمهم هذا، أما أنا العبد الفقير، فسوف أعلمهم القراءة والكتابة على طريقة برايل.. كما أكتب الآن وأقرأ.

سكت صالح لحظة، ثم قال:

- ما رأيكم يا معالي الوزير، ويا عمي الحاج، أن نستدعي إمام المسجد؟ فهو عامل متواضع، وذو عقل راجح، ويمكننا أن نستفيد من رأيه وخبرته.

قال الوزير:

- استدعه، فأربعة عقول خير من ثلاثة.

نهض صالح، ووقف في الباب، ونادى أخاه الصغير:

- أحمد.. يا أحمد..

- نعم يا شيخ صالح،

- اذهب، بسرعة إلى الإمام، وادعه إلينا.

- حاضر.

أطلق أحمد ساقيه للريح، متوجّهاً إلى بيت الإمام، وعاد صالح إلى مجلسه بتؤدة وهدوء.

تتحنن الحاج فاتح الذي كان يجلس باحترام أمام الوزير، ثم قال:

- لي طلب صغير عندكم يا معالي الوزير.

قال الوزير:

- تفضّل يا حاج فاتح.

قال الحاج فاتح:

- أرجو أن نتقاسم الأجر.

سأل الوزير:

- كيف؟ بل ماذا تعني باقتسام الأجر؟

قال الحاج فاتح بشيء من الجرأة الممزوجة بالحياء:

- أنا أشتري الأرض، وأقيم عليها البناء.. لمدرسة، ولورشة الأكفأ، ومعالكم تؤثثون المدرسة والورشة حسب الأصول وتؤمنون المعلمين، والشيخ صالح يتعاون مع الإمام لإنجاح هذا المشروع الحيوي العظيم.

قال أبو صالح:

- وأنا طلعت من المولد بلا حمص.

ابتسم الجميع لهذه النكتة، ثم قال الحاج فاتح:

- أنت، يا أبا صالح، سوف ترعى الجميع، وتؤمن لهم طلباتهم.. اتفقنا؟

قال أبو صالح في تنهد:

- اتفقنا .. فالعين بصيرة، واليد قصيرة، وليتني أستطيع أن أقدم كما تتوون أن تقدّموا.

قال الوزير:

- ما دمت ذكرت النية، فنية المرء خير من عمله، وما دمت تتوي أن تقدّم بحق ولا تستطيع، فكأنك قدّمت.

وقال الحاج فاتح:

- هل تظن - يا أبا صالح - أنّ عمك الذي ستهض به أقلّ من أعمالنا؟

قال أبو صالح:

- سوف أكون خادماً أميناً لهذا المشروع، وأرجو أن يأجرني الله عليه.

التفت الحاج فاتح إلى الوزير وسأل:

- هل اتفقنا يا معالي الوزير؟

قال الوزير:

- ولكن هذا مرهق لك.. فقيمة الأرض، وبناء المدرسة والورشة ستكون عليك عالية.. مكلفة

قال الحاج فاتح:

- تبقى رواتب الإمام، وأبي صالح، والشيخ صالح، ومصروفات أخرى.

قال أبو صالح:

- أنا وولدي صالح لا نريد أجراً على عملنا.. أجرنا على الله تعالى. أما الإمام..

وقبل أن يكمل أبو صالح كلامه، قاطعه صوت الإمام الذي وقف بالباب:

- فأجره على الله يا أبا صالح، أليس كذلك يا سادة؟ هذا بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

حاول الجالسون القيام لتحية الإمام، ولكن الإمام أقسم ألا يقوم أحد، وأسرع إليهم، وصافحهم واحداً بعد الآخر، ثم قال:

- الغداء عندنا اليوم إن شاء الله.

قال الوزير:

- الغداء جاهز في المزرعة، وسوف ننتقل إليها بعد صلاة الجمعة،
لنتغدى، ونضع الخطوات العملية لمشروع الشيخ صالح.

نظر الإمام إلى صالح في فرح، وقال:

- هل هو مشروعك الذي حدثتني عنه في السنة الماضية، يا شيخ
صالح؟

أجاب صالح بفرح:

- أجل يا شيخ محمد.. أجل.. عرضته على الوزير فوافق، ولما علم
به عمي الحاج فاتح فرح به، ودعا الله أن يوفقه للمساهمة فيه.

قال الإمام:

«يقول الناس المبصرون: العين بصيرة، واليد قصيرة... أمّا أنا،
فلا عين ولا يد».

قال الوزير:

لا يا شيخ صالح.. فقد عوضك الله عنهما، فبصيرتك يقظة،
متوهّجة، وقلبك وعقلك يهديانك إلى فعل الخير.. الخير لأهل
قريتك، وللناس جميعاً.

قال صالح في حياء وابتهاال، وقد رفع وجهه إلى السماء:

- الحمد لله الذي هياكم لتنفيذ هذا المشروع يا معالي الوزير،
ويا عمي الحاج فاتح.. وأرجو من الله الوهاب، أن يهبكم ما تستطيعون
به خدمة الناس، والتخفيف من آلام المعذبين.

قال الإمام:

- كان الشيخ صالح يقول: بعد أن يشرح لي مشروعه:

«يا شيخ محمد.. أنا أعمى، ولا أدرك، ولا أعرف الألوان، ولكن أعرف أن الورد جميل المنظر عندكم، ومحبيب لكم، وهذا المشروع هو الحلم الوردي الذي أحلم به، وسوف أسعى إلى تنفيذه، عندما أكون قادراً على تحقيقه».

قال أبو صالح هو يستعبر:

- الحمد لله الذي رزقني هذا الشاب الذي يفكر بالفقراء و
المساكين، وينسى نفسه.. يفكر بأمه وأبيه وأخيه وأخواته، وبجيرانه
وزملائه وأقربائه، ويقدم لهم القليل الذي في يده أو في جيبه، ويحرم
نفسه ما يحب.

نظر الإمام في ساعته، ثم قال:

- كاد المؤذن يضع كفه على أذنه.

سأل الشيخ صالح:

- ما موضوع خطبتك اليوم يا شيخ محمد؟

فصاح الشيخ محمد بعضوية:

وجدتها.. الشيخ صالح يخطب خطبة الجمعة اليوم، ويكون
مشروعه موضوع الخطبة، ما رأيكم دام فضلكم؟

أمّن الجميع وأثّثوا على هذا الاقتراح، ثم هبّ الإمام فهبوا معه،
وانطلقوا إلى المسجد الذي لا يبعد عنهم إلا بضعة عشرات من
الخطوات.

بعد صلاة الجمعة، أقبل الناس على شيخهم الشاب صالح يهنئونه
على فصاحته، وعلى مشروعه معاً، وأبدى بعض الموسرين رغبتهم
في المشاركة بهذا المشروع الممتاز، كما أبدى بعض الفلاحين
والعمال استعدادهم للمشاركة الطوعية في العمل والبناء.

وفيما هم أمام باب المسجد، أقبل عليهم فتى في عمر صالح، وسلم عليهم، ثم قال:

- أرسلتني أمي لأبلغكم أنها تتبرع لمشروع الشيخ صالح بأي قطعة أرض تختارونها لإقامة المشروع عليها.. عندكم الساحة القريبة من بيتكم يا شيخ صالح، وعندكم أرض الحاكورة غربي القرية، وعندكم هذه الأرض التي تقفون عليها... اختاروا أيها شئتم، حتى تتنازل لكم عنها.

نظر الحاضرون بعضهم في وجوه بعض، ثم قال الشيخ صالح:

- بارك الله فيك يا عليّ وبارك في مالك، وسوف نبلفكم قرار اللجنة المشكلة برئاسة معالي الوزير.

وقال أبو معن، أحد وجهاء القرية:

- ما رأيكم، يا جماعة، أن تتكرموا وتتفضلوا إلى دارنا، لنناقش هذا الأمر؟

وثنى وجيه آخر على رأي أبي معن، وقال:

- لا بدّ من جلسة مطوّلة.. فحتى هذا المشروع المهم، لا بدّ من أن تكون له أوقاف، وأول وقف منّي، هو طلعة الزيتون تلك.

وقال آخر:

- وثاني وقف مني.. أرض السماقات.. إنها عشرة دونمات من أطيب أراضي القرية.

قال الوزير المأخوذ بما يجري في هذه القرية الفقيرة:

- اسمعوا يا جماعة.. أنتم جميعاً مدعوون عندي على الغداء في المزرعة، معنا سيارتان تتسعان لعشرة أشخاص.. والمزرعة قريبة

وإذا لم تتسع السيارتان، فسوف تعودان لتحملا من شاء أن يتكرم علينا، ويكرمنا بالغداء معنا، ومشاركتنا الرأي في هذا المشروع الذي سيُحي موات هذه القرية، ويبث فيها الحياة والحركة، لتسابق المدينة والبلدة، وليس القرى.. هيّا بنا إلى السيارة.

وفي المزرعة دبّ النشاط، وفيما كان العاملون فيها يذبحون الدجاج، ويطبخون، كان أصحاب المشروع يناقشونه مع ثلاثة من وجهاء القرية، وقد انتهى الحوار إلى تسميته (مركز الأبرار) وتشكيل لجنة من أبناء القرية لمتابعة المشروع، يتابع كل واحد منهم جانباً منه.

قال الوزير:

- الإمام مسؤول عن أوقاف المشروع، واكتتاب التلاميذ.

والحاج مصطفى مسؤول عن تأمين العمال والبنائين.

وأبو معن أمين للصندوق.

وأبو صالح لتأمين ما يحتاجه المشروع

وأنا خادم الجميع.

فانبرى الشيخ محمد يقول:

- ومعالي الوزير هو المرجع لنا جميعاً.

أعطى الوزير أرقام هواتفه لهم، ليتصلوا به عند الحاجة، من أجل تيسير الأمور.

وتعهد الحاج فاتح بجمع تبرعات سخية من زملائه التجار، وقد وقف للمشروع كرم عنب وتين وزيتون وقدم مبلغاً كبيراً من أجل الشروع بالعمل.

انتبه الوزير إلى سكوت صالح، فنظر إليه، وإذا دموعه تغسل خديه، وتتدي الشعرات التي نبتت طرية ناعمة على خديه وذقنه التي خلق الله في وسطها غمازة حلوة.. فسأله الوزير عما به، عما يبكيه، فأجابه الإمام بصوت باك، وهو يضمّ صالحاً إليه:

- إنها دموع الفرح يا مولاي.. الشيخ صالح يعيش أسعد لحظات عمره الآن، وهو يرى بعيني عقله وقلبه، ويسمع بأذانه هذه البدايات الطيبة، وهذا التوفيق الرباني بارك الله فيكم.

حاول صالح كتم فرحه، ولكنه لم يستطع، فقد انفجر في نسيج كالنشيد، وجسمه يختلج مع دفقات عاطفته الجياشة، خالطه تهليل وتكبير وتسبيح من الحاضرين، حتى هدأ الشيخ صالح، فهدؤوا معه.

في هذه اللحظات كان السائق يقف ذاهلاً مما يرى، وحائراً فيما يفعل، فلما هدأ الناس، وصفا الجوّ حتى غدا شفافاً كسحابة من عبير، قال:

- الطعام جاهز يا معالي الوزير.

نهض الوزير وهو يدعوهم إلى المائدة:

- هيّا يا جماعة.. تفضل يا شيخ صالح، يا بركة..

نهض الجميع وتقدم الشيخ صالح على استحياء، وهو يقول:

- الامتثال خير من الأدب، الامتثال خير من الأدب.

ولحق به الآخرون، إلى حيث المائدة العامرة بأطياب الطعام، تحت دالية ظليلة، تدلت عناقيدها كالقناديل، تحف بها أوراق ناضرة، إلى الجمع المبارك ناظرة، كأنما ترحّب بهم وبما يحملون من قلوب كبيرة، وعقول نيرة، يحدوهم الأمل في رفع سوية القرية

والقرى المجاورة، بانتشال أبنائها من وهادات الجهل والفقر والأمراض الحسيّة والمعنوية.

تابع الحاضرون حوارهم على المائدة، قال الحاج فاتح:

- بعد كل الذي سمعته يا شيخ صالح، هل تستطيع أن تصف لنا بناء مركز الأبرار، ليهتدي المهندس المعماري في تصميمه؟

ابتسم صالح ابتسامة عريضة وقال:

- كما ترونني أراه.. بناء من ثلاثة أدوار.. الدور السفلي للمؤونة والخدمات كافة.. مستودع كبير، مقسم إلى أقسام، قسم كبير للمدرسة وحاجات التلاميذ، وقسم لورشة المكفوفين.

- هل ستكون الورشة مع المدرسة؟

- لا .. أعني لما تتطلبه الورشة من دف، وقش، وقطع غيار، ومسامير، وغراء، وما سوى ذلك. أما الورشة، فستكون ملحقة بالبناء.. خارج البناء، ومصممة بشكل لا يؤثر على التلاميذ أثناء الدروس.

- عظيم .. ثم ماذا؟

قال الشيخ صالح.

- وستكون الحمامات في الدور السفلي، ومصممة بشكل لا يؤذي الطلاب بالروائح وسواها.. للاستحمام، والوضوء، والخلاء.

- جيد.

- وفي الدور الأرضي تكون الصفوف، والإدارة، وغرفة المعلمين.

قال الحاج فاتح الذي رفع رأسه، وتوقف عن الكتابة.

- نعم يا شيخ صالح..

سأل الشيخ صالح، وقد أحس بأن الحاج فاتحاً يكتب:

- هل تكتب ما أقول يا عمي الحاج؟

- طبعاً أكتبه.. وإلا.. فكيف أنقله إلى المكتب الهندسي؟

قال الشيخ صالح في حياء:

- عفواً يا عمي.. أنا أتكلم بناء على أمرك، وإلا.. فمن أكون إلى جانب المهندسين؟

قال الوزير:

- تابع يا ولدي، فأنت تصمم بعقلك وبصيرتك.

فتابع الشيخ صالح:

- وهذه الصفوف تستخدم في النهار للتلاميذ الصغار، وفي الليل للأميين الكبار، وللمكفوفين الذين يعملون في النهار، وعندما آتي أيام العطل، ويومي الخميس والجمعة، أعلمهم طريقة برايل إن شاء الله.

قال الجميع:

- إن شاء الله.

وقال الوزير:

- يبدو أننا تأمرنا عليك يا شيخ صالح، فنحن نأكل ونستمع ونستمع، وأنت تتكلم ولا تأكل.

قال صالح:

- والله إن طعامكم شفاء للأجسام، يا معالي الوزير، ولكن اهتمامكم بمركز الأبرار غذاء وشفاء للروح.. وأنا أقدم غذاء العقل والنفس والروح على غذاء الأجسام.

قال الحاج فاتح:

- بارك الله فيك يا ولدي يا شيخ صالح.. والدور العلوي .. ماذا تفعل به؟

قال صالح:

- ينام فيه التلاميذ الغريباء القادمون من القرى البعيدة، والتلاميذ الفقراء من أهل قريتنا والقرى القريبة، الذين لا يجدون الغذاء، والكهرباء، والماء النظيف الذي سيجدونه هنا في البئر الإرتوازية التي سوف نحضرها بمشيئة الله، ثم بجهودكم المبرورة.

قال الحاج فاتح:

- إذن نحتاج إلى مطبخ ومطعم.

قال صالح:

- هذا صحيح وسيكونان داخل السور المحيط بالمركز، منفصلين عن البناء الرئيس.

هتف بعض الحاضرين وهم على المائدة يأكلون ويسمعون:

- الله أكبر.. الله أكبر.

وقال الإمام الشيخ محمد:

- من أنباك هذا يا شيخ صالح؟

أجاب صالح على الفور:

- نبأني العليم الخبير.

قال الإمام:

- صدق الله العظيم الذي أعطاك هذا الفهم وهذا الذكاء وهذا العلم يا شيخ صالح.

فقال أبو صالح:

- عندما ولد صالح أعمى، بكينا أنا وأمه، لما يمكن أن يلقاه في حياته، ولكننا كنا نلاحظ عليه حركات تختلف عن حركات الأطفال الآخرين.. كان ينتبه لكل حركة مهما كانت صغيرة كان يستوعب أكثر من إخوته المبصرين، ظهرت أسنانه وهو في الشهر الخامس، ومشى وهو في الشهر السابع، وكانت أمه ترقيه.. تقرأ الفاتحة والمعوذتين وتتفخ عليه، وتدعو له أن يمنعه الله من الحسد والحاسدين، ومن النفاثات في العقد، ومن أصحاب العيون الصائبة، وفي الليل، كانت تقوم لله وتصلي وتدعو له بقلب مجروق.. ولكن الله عوضنا بفهمه وذكائه وذوقه عن عينيه.

والتقط أبو صالح دمعة فرت من عينه، فقال الوزير:

- احمد الله يا أبا صالح على ما رزقك، فوالله إنه خير من كثير من المبصرين، ولولا أن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم نهانا أن نمدح أحداً بحضوره لحكيت لكم بعض ما سمعته من مدير المعهد الشرعي ومدرسيه.

قال الإمام:

- هل نخرجه يا مولاي؟

فضحك الجميع، وقال صالح:

- تريد أن تحرمني من هذه الطيبات يا إمام مسجد الطيبة؟

قال الإمام:

- نعم .. حتى لا يحرمنا معالي الوزير من حكاياتك اللطيفة يا شيخ صالح.

عندها تحرك فؤاد الذي كان يجلس بجانب الشيخ صالح، يأكل ولا يتكلم ولا يشارك في الحوار، تأدباً مع الكبار، كما كان يفعل صالح.. تتحنن فؤاد وقال:

- هل تسمحون لي ياسادة أن أتكلم؟

فرحب الجميع به، ودعوه إلى الكلام، فقال:

- كنت في منتهى السعادة وأنا أستمع إليكم.. واللّه إنني لسعيد بإطرائكم صديقي الشيخ صالح.. أنا زميله في الصف، ولكن خامل الذكر.

قاطعه صالح:

لا يا شيخ فؤاد.. لست كذلك.

ضحك فؤاد وقال:

- هذه أول مرة أسمع من يناديني: الشيخ فؤاد، أليس كذلك يا شيخ صالح؟

وعندما لم يجب الشيخ صالح، تابع فؤاد:

- قل: بلى يا صديقي فؤاد، فشتان ما بيني وبينك.. أنا - الشيخ صالح - الأول في الصف الذي أكون فيه، وأنت - يا فؤاد - وزملاؤك تأتون بعدي بكثير.

حاول صالح مقاطعة فؤاد، فقال فؤاد:

- ليس من عادتك، يا صديقي، مقاطعة أحد.. هذا ذوق رفيع تعلمناه منك.

- أستغفر الله.

- فلماذا تقاطعني الآن، وأنا لم أقاطعك طوال هذا اليوم؟

قال صالح في حياء شديد:

- بل منك، يا صديقي فؤاد، تعلمت الكثير.. تعلمت منك الذوق في الكلام، وفي معاشرة الأنام، وتعلمت الذوق في الجلوس والقيام، وتعلمت منك الذوق في الشرب والطعام، وتعلمت الذوق منك في أناقة الهندام.. فهل تتكر هذا يا فؤاد؟

سكت فؤاد مُحرجاً، فتابع صالح:

- صحيح أنا متفوق على زملائي في الدراسة، ولكنهم، أو بالأحرى، لكن بعضهم، و فؤاد من هذا البعض، خير مني في كثير من المزايا.

وعندما أحس صالح أن فؤاد قد يقاطعه قال له:

- أرجو ألا تقاطعني يا صديقي.. فمَنْك تعلمت الكرم.. ومَنْك تعلمت الإيثار، ومَنْك تعلمت الشجاعة الأدبية.. فأنت الجريء وأنت الشجاع.. وسوف أذكر حادثة واحدة لتقيسوا عليها..

قال الحاج فاتح:

- نعم يا ولدي يا شيخ صالح.. تكلم.. فأنا أحب أن أعرف شيئاً
عن ولدي فؤاد الذي يلزم الصمت، ولا يحدثنا بما يجري معه في
المعهد.

قال صالح:

- على أن تستمروا في الطعام.. كلوا عنكم وعني، فوالله ما شملت
روائح ذكية كهذه التي تنطلق من هذه المائدة.

سأل الوزير:

- وأنت يا شيخ صالح.. متى تأكل؟

- بعد أن أفرغ من رواية هذه الحادثة إن شاء الله.

قال فؤاد:

- ألا يمكن إرجاؤها يا شيخ صالح؟ أرجوك.

قال صالح:

- بل أنا أرجو منك أن تدعني وشأني، حتى أخفف عن نفسي بعض
ما أثقلتوها به اليوم.

قال الإمام:

- تفضل يا شيخ صالح، وأوجز، فقد برد الطعام أو كاد.

قال صالح:

كما تحبون..

فقال فؤاد في انفعال:

- إذن.. دعوني أخرج إلى الهواء الطلق، خارج هذه المزرعة.

قال صالح:

- لا يا صديقي.. لا أحب إخراجك ولا إخراجك.. سألزم الصمت، وأتأول طعامي، قبل أن يبرد، كما قال شيخي الإمام.

قال الإمام:

- نترك الشيخ صالحاً ليأكل، ونحن نتابع حديثنا عن مركز الأبرار.

وهكذا أنقذ الشيخ محمد الموقف، فامتدت يد الشيخ صالح إلى الطعام، وكان صديقه فؤاد يساعده في تقديم ما يحب منه في حب وذوق، فيما كان الآخرون يتحاورون في الخطوات العملية للمشروع.



الفصل الخامس

دارت الأيام، والعمل في مركز الأبرار على قدم وساق، فقد كثرت التبرعات له من التجار، ومن نسائهم اللواتي قدّمن الكثير من حليهن ومدخراتهن له، ومن أسرة الوزير، وأسرة الحاج فاتح، والأسر التي تمكن أعضاء اللجنة من الاتصال بها.

وكان صالح يغدو ويروح إلى القرية، ويحث على العمل والإنجاز بإتقان، ويكرر على مسامعهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه».

حتى خشي على دراسته، فقد كان في الصف النهائي للمرحلة الثانوية، ولكنه تخطى الامتحان بتفوق، وقرر أن ينتسب إلى كلية الشريعة.

وبهذه المناسبة، زاره الوزير في المعهد الشرعي، وقدم له هدية كان اشتراها من باريس، هي (العصا البيضاء) التي تعمل بأشعة الليزر التي تصدر عنها، لتنبه الكفيف إلى العوائق والعقبات التي قد تعترض طريقه، بإصدار أصوات من مكبر صوت مثبت على العصا نفسها.

فرح الشيخ صالح بهذه الهدية القيمة التي جعلته يتحرك وينتقل بأمان واطمئنان.. شكر الوزير على هديته في تأثر وانفعال، وقال له:

- سأسافر اليوم إلى قريتي، ليطمئنوا عليّ، ما دام قد هيا الله لي من يرعاني ويكرمني، وليروا فضل الله عليّ، في هذه العصا التي ستكون كالعينين لي.

قال الوزير في تأثر بالغ:

- السيارة في انتظارك يا شيخ صالح لتتقلك إلى قريتك، ليفرح

بك أهلك ومحجوك، ويطمئنوا عليك، ولتطمئن على سيرورة العمل
في مركز الأبرار.

قال صالح:

- سوف أسافر بالباص، إذا سمحت لي يا معالي الوزير، فقد أرهقتكم.

فقال المدير:

- والله إنني لأعجب من أريحيته وكرمك يا معالي الوزير، كما
أعجب من ذوق الشيخ صالح الذي يحبكم كما يحب أباه وأمه.

قال الوزير:

- هيا يا شيخ صالح.. اسبقني إلى السيارة.

نهض صالح، وسار نحو باب الإدارة، وخرج منه إلى الباحة،
فإلى الباب الخارجي، مستخدماً العصا البيضاء، والوزير والمدير
والطلاب يلاحقونه بأنظارهم، ويدعون لهذا الوزير الشهم الذي لم
يسمعوا بمثله وكرمته ومروءته إلا فيما قرؤوه في كتب التاريخ وتراجم
الصالحين من الولاة والوزراء في العهود الماضية، وما أقلهم.

ركب الوزير، وأراد صالح أن يركب بجانب السائق، فقال له
الوزير:

- بل تركب إلى جانبي يا ولدي.. أم أنك لا تريد أن تتحدث معي؟

- أسرع صالح إلى المقعد الخلفي، وركب بجانب الوزير، وهو
يقول:

- والله يا عمي.. عفواً يا معالي الوزير.

فقاطعه الوزير قائلاً:

- ابقْ على الأولى يا شيخ صالح.. فأنا عمُّك .. أرجو أن تقبلني
عمًّا لك.

قال صالح في إعجاب وتأثر بالغين:

- الله الله.. لقد قالوا: رب أخ لك لم تلده أمك، ونسوا أن يقولوا:
ربَّ عمِّ لك لم تلده جدتك..

وأنا أتشرف بهذا يا معالي الوزير.

بل قل: ياعمي.

فقال صالح في انفعال:

- ياعمي الرائع.. يا عمِّي النبيل الكريم.. يا صاحب الخلق العظيم.

سأل السائق:

- إلى أين يا معالي الوزير؟

- إلى الطيبة.. إلى بيت الشيخ صالح.

انطلقت السيارة، وانطلق لسان صالح يدعو لهذا الرجل الشهم
الذي ساقه الله إليه، ليكون عوناً له على متاعب الحياة... ثم انطلق
يحلم بالجامعة التي سينتسب إليها، وتخيل بناءها الكبير، وأساتذتها
الكبار، والزملاء، والمحاضرات، كانت أحلام اليقظة تسيطر عليه،
وكان الوزير يتأمله في صمت وحب.. وظهرت أحلام صالح في قسَمات
وجهه، وحركات يديه، ورجليه، فقطع عليه الوزير أحلامه بقوله:

- بماذا تحلم يا شيخ صالح؟ ماذا تقول في نفسك؟

قال صالح وكأنه يحدث نفسه، لا الوزير:

- «الحمد لله الذي رزقني هذا العمّ الصالح الذي سوف يدخلني كلية الشريعة، وقد بذل لي من حرّ ماله الحلال، ما جعلني أبدو أفضل حالاً من زملائي.. فأنا أسكن في بيت مريح، وعندي مكتبة صوتية كبيرة، فيها أكثر ما أحتاج إليه من الأشرطة، وعندي مسجل أسجل به المحاضرات، وعندي آلة طابعة هي أحدث طراز ظهر حتى الآن.. وعندي وعندي...».

يبدو أن صالحاً انتبه لنفسه، فقال للوزير:

- هل سمعت شيئاً مني يا عمّي؟

قال الوزير الذي عرف الحالة النفسية لصالح:

هل يسمع الآخرون ما يحدث به الإنسان نفسه يا شيخ صالح؟

- لا...

- هل تسمع ما يجول في نفسي يا شيخ صالح؟

- لا.. لا أسمع.

- إذن حدثني عما يجول في نفسك، لأسمعك.

حمد الشيخ صالح ربه على ستره، وفرح لأن الوزير لم يسمع ما يجول في خاطره، وما يحدث به نفسه، ثم فكر ملياً فيما ينبغي أن يقول، فلم يجد غير كلمات الشكر لله الرحمن الرحيم الذي جعل الوزير على هذه الصورة التي نتخيلها ولا نكاد نجدها في واقعنا المعيش، وقال:

- ها قد ظهرت القرية.

- فالتفت السائق وسأله:

- كيف عرفت هذا يا شيخ صالح؟

ثم التفت إلى الوزير وقال:

- عفواً معالي الوزير، فقد تكلمت بلا وعي.

قال الوزير:

- أجبه يا شيخ صالح.. كيف عرفت أن القرية ظهرت؟

قال صالح:

- هذه الصخرة التي تركوها في الطريق، فلم يمهدوها ويكسروها، ولم ينأوا بالطريق عنها.. وكلما ذهبنا إلى القرية أو عدت منها، رقصت بنا السيارة.

قال الوزير:

- هل أحسست بها يا أبا مصطفى؟

قال السائق:

- قليلاً.. لأنني أراها كلما ذهبنا إلى المزرعة من هذا الدرب الترابي.

قال الوزير:

- أما أنا فلم أحس بها، وسوف نسعى إلى تعبيد هذا الطريق إن شاء الله.

فردّد صالح:

- إن شاء الله.

وصلت السيارة، وترجل صالح قبل السائق، وفتح الباب للوزير وهو يقول:

- تفضل يا عمي، فقد وصلت إلى بيتك.

ترجل الوزير، فيما كان صالح يفتح باب الدار وينادي:

- أين أنتم يا أصحاب الدار؟ جاءكم ضيف عزيز.

ثم توجه إلى الوزير وقال:

- تفضل بالدخول يا عمي.

أشار الوزير إلى السائق أن يدخل بالهدايا أولاً، وقال للشيخ صالح:

- عندي موعد يا شيخ صالح .. يجب أن أعود فوراً، واتصل بي عندما تعود إلى المدينة.

خرج أبو صالح مرحباً، وداعياً الوزير إلى الدخول، فقال له ابنه صالح:

- إن عمي الوزير مشغول يا أبي... عنده موعد مهم، ولهذا يجب أن يعود فوراً.

نظر أبو صالح إلى ولده باستغراب وغضب، وقال له:

- ما هذا يا صالح؟ هل ربيّنّاك على البخل وقلة الذوق؟

فقال صالح في ابتسام:

- عندما يغضبون عليّ ينادونني، يا صالح.. هكذا حاف.. أسمعته يا عمي؟

قال أبو صالح:

- قل يا معالي الوزير يا ولد يا صالح.

قال الوزير في ارتياح وابتهاج:

- نحن اتفقنا هكذا.. أن يناديني يا عمي، وأناديه يا صالح.. ولكن الآن فسخ الاتفاق.

صاح صالح:

لماذا يا عمي؟

أجاب الوزير:

- لأنك تقول: عندما يغضبون ينادونك يا صالح، وعندما يرضون، ينادونك: يا شيخ صالح وأنا لا أريد أن أغضب منك.. سوف أكون راضياً عن تصرفاتك يا ولدي صالح.

أكبَّ صالح على يد الوزير يقبلها، ويمسح بها وجهه، فيما كانت اليد الأخرى للوزير تربت على كتفي صالح وأبو صالح ينظر في انبهار لما يجري أمامه.

ودَّع الوزير صالحاً وأباه، وامتنطى سيارته، وعاد به السائق يسابق الريح إلى المدينة وعندما غابت السيارة عن العيون، استدار صالح نحو أبيه، وأخذ كفه بين يديه، وقبلها طويلاً وهو يقول:

- رب أخ لك لم تلده أمك ورب عم لك لم تلده جدُّك وهذا الوزير الفاضل عمِّي.. هكذا طلب مني أن أناديه.

دلف الولد إلى بيته، ولحقه ابنه صالح الذي كان ينادي أمه بصوت عالٍ على غير عادته من شدة الفرح:

- تعالي يا أمي تعالي انظري إلى هذه العصا السحرية التي
عوضني بها الله عن عيني.

فرحت الأم وانطلقت منها زغرودة، فنهاها ابنها في رفق عن
الزغاريد، ثم شرح لأهله عمل هذه العصا البيضاء التي اشتراها له
عمّه الوزير من باريس، ليقدمها هدية بمناسبة دخوله الجامعة، حتى
تعيّنه في الذهاب والإياب.

عندما استقر المجلس بأهل البيت، قالت الأم في استغراب:

- هل من المعقول أن يكون معالي الوزير قد حطّ عينه عليك يا ولدي؟

- ماذا تعنين يا أمي؟

- أعني .. هل يمكن أن يزوجك ابنته أروى؟

قال أبو صالح:

- كوني عاقلة يا امرأة.. أين نحن من مقام الوزير؟

قالت الأم:

- إذن .. لماذا كل هذا الاهتمام بصالح؟

قال أبو صالح:

- لأن الوزير أصيل، وابن أصلاء.. كريم وابن كرماء.. رأنا فقراء،
ورأى ابننا أعمى، فألقى الله في قلبه الحنان تجاهنا والعطف علينا.

قال صالح في انكسار:

- هل ما يقدمه لنا من قبيل العطف والصدقة علينا يا أبي؟

قال أبو صالح:

- إذن .. بماذا تفسره أنت يا ولدي؟

قالت أم صالح:

- ابني صالح شيخ قدّ الدنيا .. صحيح أنه كفيف، ولكنه ذكي، فهيم، عاقل، ثم إنه شاب جميل .. ليس في شباب القرية من هو في مثل جماله، لولا عيناه يا عيني.

وانخرطت في البكاء، فهدأ صالح من روع أمه، وقبل رأسها ويديها، ثم قال:

- الوزير رجل عظيم يا أمي وقد أحبنا من قلبه، وما أظنه يفعل ما يفعل لنا ولأهل القرية ولكل من يعرفه من قبيل العطف والشفقة .. هو هكذا، يحبّ الخير ويفعله .. متواضع، حتى إن الذي يلقاه لأول مرة لا يظنه وزيراً.

قالت الأم وهي تمسح خديها:

- يعني .. هل سمعك .. هل عرض بتزويجك ابنته أروى؟

فصاح أبو صالح:

- اتقي الله يا امرأة، ولا تتحدثي بأعراض الناس .. حرام .. حرام والله أن نجازي ذلك الرجل الطيب بمثل هذا الكلام غير الطيب.

قالت أم صالح:

- ابني، وإن كان أعمى، خير من بنته ومن بنات كل الوزراء .. فهمت؟

صاح أبو صالح:

- فهمت .. بقي أن تفهمي أنت يا أم بدر الدجى.

فصاحت أم صالح:

- ابني مثل البدر.. انظر إلى وجهه.. انظر إلى قامته.. انظر إلى حديثه.. انظر إلى ثيابه.. انظر إلى دراسته.. سوف يدخل الجامعة، وسوف يكون أحسن من كل الطلاب.. وسوف ترى.. فهمت؟

قال أبو صالح وهو يكظم غيظه:

- فهمت.. فهمت... حفظ الله لنا أولادنا جميعاً، وحفظ للناس أولادهم..

تتأهى إلى مسامعهم أذان المغرب، فتنهض صالح وهو يقول:

- هيا يا أبي إلى المسجد.

قال أبو صالح:

- اسبقني يا ولدي، فسوف أجدد وضوئي.

انطلق صالح نحو المسجد، ويده العصا البيضاء، كان يسلم على من يلقاه، وكان من يلقاه يرحب به، ويدعو له، ويبيدي إعجابه بهذا الفتى الأعمى العينين، البصير القلب، الذي فتح الله له أبواب رحمته، عندما عرفه إلى ذلك الوزير النبيل، وهو - بالتالي - لم ينس أصله وأهل قريته، لم ينس عمّاه وفقره وبؤسه، فكان مثال الشباب المسلم الذي يحب لغيره ما يحب لنفسه وزيادة، حسب تعبير أحدهم.

أمّا صالح، فقد وقف بين يدي ربّه، ورفع كفيه إلى السماء، وابتهل:

«ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ، وأن أعمل صالحاً ترضاه».

«اللهم أحسن وقوفي بين يديك، ودلني بك عليك...».

بعد انتهاء الصلاة، جلس صالح مع شيخه إمام المسجد الذي قرأ الحزن في وجه صالح، فسأله عما به، وهل يشكو من شيء؟ فهزّ صالح رأسه نافياً. قال الإمام:

- هل تخبئ على أخيك يا صالح؟ أم نسيت أنني أعرفك كما أعرف نفسي؟ ما بك يا صديقي؟ تكلم، وأخرج ما بنفسك إلى النور.. إلى الهواء الطلق لتستريح.. تكلم يا صالح.. تكلم.

فاضت أحزان صالح، وانهمرت الدموع على خديه، فضمّه الإمام إليه، وهدأ من روعه، ثم قال في حنان باك:

- ما بك يا ولدي؟ لقد قطعت قلبي.. ما رأيك قبل اليوم في مثل هذا الحزن.. ووساوس الشيطان بدأت تعصف في نفسي.. هل جرى للوزير مكروه لا سمح الله؟

نفى صالح ذلك بتحريك رأسه يميناً وشمالاً.

- هل أصاب الحاج فاتحاً شيء؟

...

- هل تراجع أحد عن المشروع؟

...

- إذن ماذا يا صالح؟ ماذا في الأمر يا ولدي.. تكلم قبل أن أفقد أعصابي.

قال صالح في حزن:

- ما رأيك بالوزير يا شيخ محمد؟

قال الإمام:

- إنسان نبيل، ما عرفت مثله فيمن عرفت من الرجال عامّة، وأهل الحكم خاصة.

سأل صالح:

- ما رأيك في عواطفه تجاهي؟

- ماذا تعني؟

- أعني.. هل هي عواطف صدق ومحبة، أم أنها مجرد عطف وشفقة على فتى بائس أعمى؟

أمسك الإمام يد صالح بكلتا يديه في انفعال، وقال:

- اعذرني يا ولدي، إذا سمعت مني كلمة تؤذي مشاعرك.

قال صالح:

- تكلم يا شيعي وصديقي وأخي، ولا تتخرج من استخدام أي كلمة أو معنى، فنحن شيخ وتلميذه، ولكنهما صديقان.

قال الإمام:

- والله يا ولدي، لو رأيت معالي الوزير النبيل وهو ينظر إليك ويتأملك، لعرفت أنها نظرات الحبّ والإعجاب.. نظرات أب نحو ولده.. فلا تترك لوساوس الشيطان سبيلاً إلى عقلك.. استقت قلبك يا صالح، وسوف يفتيك بما أقول، والله شاهد على ما أقول.

انفرجت أسارير صالح.. رقص قلبه طرباً، كما رقصت أذناه.. أحسّ كأنه وُلِدَ من جديد، فهذه الشهادة من رجل صالح، لرجل صالح تزن الدنيا كلها بمباهجها.. دغدغت مشاعره سحابة من عبير.. لفّه شعور بهيج.. أحسّ بالمنبر يتسم له وبالمحراب يهتئ، وبصرير باب المسجد المتواضع يضحك له، ويرحب به..

نهض صالح، ونهض معه الشيخ محمد .. مدّ يده مودّعاً، وقبل أن ينطلق كالريح، قال له الشيخ محمد:

- ما هذه العصا التي نسيته يا شيخ صالح؟

التقط صالح عصاه من يد الشيخ محمد، وقال وهو يغادر المسجد:

- ادع لي يا شيخ محمد .. ادع لتلميذك وأخيك الصغير صالح، ليصرف الله عني وساوس الشيطان ويحفظني من همزاته ولمزاته.

وسمع صالح دعوات الشيخ محمد له بالحفظ والستر، وهو يمرق من باب المسجد كالسهم ..

كان يطير من شدة الفرح .. استخفه الشوق إلى أمّه وأبيه، ليجلس معهما مطمئناً إلى موقف الوزير منه، فالشيخ محمد لا يكذب ولا يخادع، وقد عرفته منذ سنوات إنساناً مستقيماً صريحاً كحدّ السيف، يقول الحق مهما كان مُراً، ولو على نفسه، يجمال ولكنه لا يقول إلا الصدق، وهو يحبني كما يحب إخوته وأولاده، ولو لاحظ شيئاً مريباً على الوزير، لحذرني منه صراحة أو تلميحاً .. فالوزير يحبني .. هكذا قال الشيخ محمد، وأنا أصدقّه، وقد قال لي: استفت قلبك، وقد استفتيته، ورأيتُه مطمئناً إلى موقف الوزير، وإلى صدق عواطفه تجاهي .. ولكن .. ليس معنى هذا أن يزوجني بنته .. ثم .. أنا لا أرغب في الزواج منها، فإن كان الوزير يحبني ويريد لي الخير، فقد لا تكون أروى كذلك .. قد تسمع كلام أبيها وترضى بي زوجاً لها، ولكنها .. قد لا تكون صادقة في حبّها .. قد يكون حبّها عطفاً وشفقة على شيخ أعمى لا تلبث أن تدير له ظهرها، وتبدي أسفها .. ثم .. قد لا توافق أمّها، فتنشب المشكلات في الأسرة، وأنا لا أرضى أن أكون سبباً في تعكير صفو تلك الأسرة الكريمة.

استقبلته أمّه في صحن الدار، وقد تهلل وجهها، وقالت:

- أهلاً بالشيخ صالح.. ابني وحببي..

ردّ عليها صالح في سرور ظاهر:

- أهلاً بك يا أمي.. يا حبيبتي ويا أغلى شيء في حياتي.

قالت مفتعلة التجهّم والغضب:

- اسمع يا صالح.

قال صالح:

- يا شيخ صالح أرجوك.

فضحكت وهي تقول:

- يا شيخ صالح.. أنا غيورة.. وأنت تقول: يا حبيبتي.. فهل يمكن أن تسرقك بنت الوزير مني، وتصير عندك أغلى شيء في حياتك يا ولد؟

قال صالح:

- لا بنت الوزير ولا بنات الدنيا يساوين شيئاً عندي بالنسبة إليك يا أمي، فاطمئني يا حبيبتي.

- هذا وعد يا صالح..

قال صالح:

- ووعد الحرّ دين يا شيخ صالح.. أليس كذلك يا صالح؟

وعلت ضحكاتهما، فناداهما أبو صالح من داخل الغرفة:

- أضحكونا معكم.. تعال يا ولدي.. تعالي يا أمّ صالح.

وقفت أمّ صالح في الباب، وقالت في عبوس مفتعل:

- لا أحد يتقدم على أمّ صالح... لا الشيخ صالح، ولا زوجته ولا أبوه.

قال صالح في ابتسام:

- ادخلي أولاً يا أمي حتى أدخل بعدك.

وبعد أن جلسا على طراحة بجانب الباب، تابع صالح:

- لا أحد يتقدم عليك يا أمي إلا أبي... فهو وليّ أمورنا جميعاً.

قال أبو صالح:

- بارك الله فيك يا ولدي .. ولكن أمّك تمزح.

قال صالح:

- ثم.. يا أمي.. دعينا نحسم أمر زواجي من بنت الوزير.

صاح أبو صالح في غضب:

- والله عال... جعلتموها حقيقة.. اتركوا هذا الهراء يا صالح ويا أمّ صالح.

أرادت أمّ صالح أن تردّ على زوجها، ولكنّ صالحاً قال:

- أرجوكم أن تعطوني فرصة لأتكلّم ... دقيقة واحدة فقط.

قال أبو صالح:

- تكلم يا ولدي.

قال صالح:

-هل أنا في رأيك يا أبي عديم الضمير؟

قال أبو صالح:

- لا .. أنت صاحب ضمير حيٍّ ولله الحمد، ولهذا أحببتك أكثر من حبِّ الوالد لولده.

قال صالح:

- وأنت يا أمي؟

- وأنا رأيي كرأي أبيك.

قال صالح:

- إذن .. كيف يخطر على بالكم، أني قد أرضى بالزواج من بنت الوزير، حتى لو وافقتم أنتم وأبوها وأمها وهي على هذا الزواج؟

أين شرط الكفاءة بيني وبينها؟

كيف ستعيش في بيت شاب أعمى فقير بئس؟

اعترضت أم صالح على هذا الكلام، وقالت:

والله.. لا أروى ولا بنات أهل الأرض كفوءات لك يا ولدي.. أم أنك نسيت من أنت؟

قال صالح:

- لا والله ما نسيت، ولن أنسى، فأنا صالح ابن أبي صالح وأمّ صالح.. من أسرة متوسطة الحال، تعيش في قرية صغيرة.. ولهذا أنا أرفض الزواج من بنت الوزير.

صاح أبو صالح:

- ارفعوا اسم هذه البنت الطاهرة، واسم أمها وأبيها من ألسنتكم... أرجوكم.. أعصابي متوترة، تكاد تحترق، وأنا أسمع هذا الحديث السخيف.

قال صالح:

- يبدو أنه فعلاً سخيف يا والدي، فأنا لم أفكر أصلاً بالزواج، ولن أفكر به قبل عشر سنين على الأقل.

صاحت أم صالح:

- على الأقل؟ بعد عشر سنين على الأقل يا صالح؟

قال صالح:

- اهدئي يا أمي.

صاحت:

- لن أهدأ حتى تكفّ عن هذا الكلام السخيف حقاً.. قال عشر سنين قال..

قال صالح في هدوء:

- ألا تثقين بعقلي يا أمي؟

- لا.. كنت أثق بك وبعقلك قبل الآن... أمّا الآن، فلا وألف لا..

قال صالح في هدوء محاولاً إقناع أمه:

- أمام ابنك مشوار طويل يا أمي.. سأمضي في الجامعة أربع سنين

أو خمس سنين.. وإذا أعانني الله، فسوف أستكمل دراستي العليا،
فأسجل في الماجستير والدكتوراه إن شاء الله، وهذه تحتاج إلى خمس
سنين أخرى.. يعني.. أحتاج إلى عشر سنين أخرى.. فأيهما أفضل
لابنك: الدراسة ونيل الشهادات العالية، أم الزواج؟

- بل الدراسة.. ولكن.. من أين يا حسرة؟

- الله كريم يا أمي..

قال أبو صالح في حبّ وابتسام ورضى:

- بارك الله فيك يا ولدي.. لقد أثلجت صدري بهذا التفكير
المتزن.

- وفيك يا أبي، فأنا ابنك الذي ربيته على العقل والتخلق بمكارم
الأخلاق.. الوزير بمثابة عمّي، وأرجو ألا يتخلّى عني يا أبي.. أريد أن
يقف المشروع على قدميه، كما أريد أن أستكمل دراستي الجامعية
والعليا.

قال أبو صالح:

- قل: إن شاء الله يا ولدي.

- إن شاء الله تعالى يا أبي.



الفصل السادس

لمع نجم الشيخ صالح في كلية الشريعة، وفي الجامعة، وضحت له الأيام، فشد إليه الأنظار، بدمائته، وحسن تصرفه، وروحه المرححة، وبابتسامته التي ما كانت تفارق شفتيه، وبجبه الناس، وتقديم العون لمن يطلبه، وبذكائه، ورجاحة عقله، وقدرته الفائقة على الاستيعاب وتفوقه على سائر أقرانه بعلمه وجدّه واجتهاده.

كان يدخل الجامعة بأناقته التي عُرف بها، يحمل في يده اليمنى عصاه البيضاء لترشده إلى الطريق المأمون، وتمنعه العثرات، وبيده اليسرى محفظة أنيقة، فيها عُدتّه للكتابة، ومسجل صغير لتسجيل المحاضرات والحوارات، وأحياناً يكون معه الفتى نعمان الذي أستأجره ليقراً له من كتب المبصرين التي كوّن منها مكتبة كبيرة، أكبر من المكتبة الصوتية، ومن كتب المكفوفين ومجلاتهم باللغتين العربية والإنكليزية.

توزعت حياة صالح بين الجامعة والقرية، وكانت حياة حافلة بالحيوية والنشاط.

في الجامعة كان يشارك في الأنشطة الطلابية عامة، والثقافية خاصة، ويخوض غمار الاتحادات الطلابية، وكان دائماً الفائز الأول في انتخاباتها، والمقدم في لجانها الثقافية، وكان يبذل فيها من النشاط ما كان يبهر المبصرين.

أسس (الرابطة الجامعية للمكفوفين) وشملت المكفوفين في الجامعة في سائر كلياتها وأقسامها، ثم سعى لضم بعض المكفوفين من خارج الجامعة.. من المدارس الثانوية والمعاهد الشرعية، ومدارس تحفيظ القرآن، وصرف جهوداً مضيئة في سبيل إنجاحها، وتقديم الخدمات المناسبة لمنتسبيها.. كان يقيم لهم الحفلات والمهرجانات ويأخذهم في رحلات ترفيهية، كان يحدثهم عن مشروعه الطموح في مركز الأبرار، وهياً لهم زيارة إلى قريته، وأطلعهم على ما تم في مشروعه، وعرفهم إلى الأكفاء الذين باشروا العمل في ورشة لصناعة

كراسي القش، وكراسي الخيزران، كان استأجر لهم بيتاً ليعملوا فيه،
ريثما يتم البناء المخصص لورشتهم ضمن مباني مركز الأبرار.

شارك صالح في مسابقة شعرية لطلبة الجامعة، وفازت قصيدته:
(عينان مطفأتان) بالجائزة الأولى.. ألقاها على مدرّج الجامعة،
بصوته الدافئ الهادئ حيناً، الهادر حيناً آخر. وعندما قال:

«العُمَيَّ عَمِيان القلوب، الضائعون بلا كيان

والمبصرون بنور أفئدة.. لهم هَتَفَ الزمان».

ضجت القاعة بالهتاف والتكبير وطلب الإعادة، فكان يبدئ ويعيد
الكثير من أبيات قصيدته العصماء هذه وعندما أنشد:

«والعُمَيَّ عُمِيان البصائر في الضلالة يعمهون

بُكْمٍ ووقُرُّ الشكِّ أصماهم فهم لا يسمعون».

علت الهتافات، واشتد التكبير، وتطاولت أعناق الأكفاء، وتقاصرت
قامات عميان البصائر.

وتحدثت بعض الصحف المحلية عن هذا المهرجان العُكاظي،
وعن شاعر الجامعة: الشيخ صالح.. تحدثت عن الشاعر وشعره..
عن طوله الفارع، عن وسامته، عن أناقته، عن ذوقه وهو يحسو قليلاً
من الماء أثناء الإنشاد.. عن قسمات وجهه.. عن نظارته السوداء التي
غطت عينيه وما فوقهما وما تحتها بقليل، وأبدت حزنها لعجز
الطبيب عن ردّ البصر إلى صاحب هذه البصيرة النافذة.. وتحدثت
عن شعره.. عن ألفاظه المصطفاة من لآلئ اللغة العربية، عن جملة
القرآنية. عن خياله الخصب.. عن صورته البديعة.. عن موسيقاه
الشجية.. ثم وقفت طويلاً عند إلقائه، وقالت:

«لقد بزَّ بإنشاده كلَّ من عرفناه من شعراء هذا البلد الأمين.. وقد سما إنشاده بشعره حتى بلغ ذروة لا تسامى».

وهكذا صار الشيخ صالح حديث بعض المثقفين في منتدياتهم.. وكلما تنهى إلى مسامعه إطراء المطربين، تطامن تواضعاً لله، وشكراً له على نعمائه وآلائه، وقد يخرُّ ساجداً لله، حامداً إياه، راجياً أن يديم عليه نعمه، ويهديه سبيل الرشاد، حتى لا يضلَّ أو يُضلَّ، وكثيراً ما سُمع يقول في شبه بكاء:

«يا رب اجعلني خيراً مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون..»

ياربِّ كن مع عبدك الفقير القليل العاجز صالح، فإذا تخلّيت عنه هلك..

ياربِّ إليك المشكّتي، وأنت المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بك..».

وقد تنفرد مرة أو أكثر، فيلتقطها بسبابته، حتى لا يراها المبصرون، فيكون مظنة النفاق والرياء.



الفصل السابع

رن جرس هاتفه النقال، وكان على الخط معالي الوزير الذي ترك الوزارة، وتفرَّغ لأعمال البرّ والخير والإحسان، ولكن صالحاً كان يصرّ على وصفه بالوزارة ويقول بصدق:

- أنت عمي تشرف الوزارة، ولا تشرف بالوزارة.. الوزارة هي التي تشرف بك.. ومع ذلك، يطيب لي أن أسمع صفة الوزير ملازمة لك، ولن أتخلّى عن وصفك بها عندما أتحدث عنك، أو يتحدث عنك الناس.

دعاه الوزير إلى الغداء، فاستجاب فوراً ولم يتمنّع ولم يتصنّع:

- سأكون عندكم في الساعة الثانية إن شاء الله تعالى.

- بل تبقى في بيتك، وستأتيك السيارة إن شاء الله قبيل الثانية.

- كما تريد يا عمي الوزير.

في الواحدة والنصف دُقَّ جرس الباب، فأسرع صالح نحو الباب، ولم يدر كيف سقط على الأرض، وارتطم وجهه بالجدار، فصاح:

- آخ.. آخ يا أمي آخ..

سمع الوزير صوت سقوطه وتأوّهه وأنيته، فقرع الباب بشدة وهو يصيح:

- صالح.. صالح ... أين أنت يا ولدي.

سمع صالح صوت الوزير، فكتم أنيته، وتمالك أوجاعه، وزحف نحو الباب هو يصيح بصوت واهن:

- أنا هنا يا عمي الوزير.. لحظة وأفتح الباب.

اشتد القرع على الباب، واشتدت عزيمة صالح، ففتح الباب، ثم سقط مغشياً عليه..

في الطريق إلى المستشفى أفاق صالح من غيبوبته، فسأل:

أين أنا؟

وجاءه صوت الوزير؟

- أنت معي وأنا معك يا ولدي.. الحمد لله على سلامتك.

هل نحن ذاهبون إلى الغداء؟ أم.. آخ..

- لا يا ولدي.. إلى المستشفى، وسوف تتماثل للشفاء سريعاً إن شاء الله.

- قال صالح:

- لا داعي للمستشفى يا عمي.. أحتاج إلى قليل من الراحة لا أكثر.

- ترتاح في المستشفى إن شاء الله.

- رقد صالح في غرفة من الدرجة الأولى، فيما كان سائق الوزير يطير بسيارته إلى القرية، ليحضر أمه وأباه.

- سأل الوزير عما جرى، فقال صالح:

- زارني أمس بعض الزملاء، ويبدو أنهم عبثوا بالبيت، ووضعوا بعض الأثاث في غير محله، وقد ارتطمت بمنضدة صغيرة وضعوها في غير مكانها، فسقطت على الأرض.

- سامحهم الله وسامحك.. فأين العصا البيضاء؟

قال صالح في حياء:

- وأنتم تصعدون الدرجات السبع، عرفت أنك قادم يا سيدي،
جائتني رائحة عطرك، فأسرعت لأفتح الباب لأعزّ الأحياب، وما كنت
متوقعا مجيئك يا عمي.

قال الوزير:

- لم أشأ أن أخبرك بأني آت إليك، ومعني هدية فوزك في المسابقة
الشعرية.. أردتها مفاجأة، وكان ما قدر الله أن يكون.

قال صالح:

- لا أدري يا عمي لماذا لا أشعر أنني صرت عبئا عليك، ولذلك لا
أكاد أجد الكلمات التي اعتاد الناس أن يجاملوا بعضهم بها.

قال الوزير في فرح ظاهر:

- هذا لأنك ولأني لسنا كسائر الناس.. أنا أقدم لولدي، وهذا
واجبي تجاه أولادي جميعاً، وأنت واحد منهم.. وأنت يا ولدي تتقبل
هديتي كما يتقبلها أولادي.

- ولكن أولادك يا عمي، يقبلون يدك كلما قدمت لهم هداياك،
فلماذا تمنعني من تقبيل يدك الكريمة الطاهرة كما يفعلون؟

قال الوزير:

- ألا تريد أن تعرف الهدية أولاً؟

قال صالح:

- أقبل يدك أولاً، يا أبي، ثم أسأل عن الهدية.

ضمّ الوزير صالحاً إلى صدره، قبل رأسه، فيما كان صالح يقبل يده، ويمسحها بوجهه ويفسلها بدموعه.

وكان الطبيب والممرض يقفان على رأسيهما متعجبين.

تتبّه الوزير لمجيء الطبيب، فقال له:

- اسمع يا حكيم.. الشيخ صالح بمثابة ولدي.. بل هو ابني أرجو أن تُعنى به كما تُعنى بأعز الناس عليّ وعليك.

هزّ الطبيب رأسه، ثم تقدّم نحو صالح، وأخذ يقلّبه ظهراً لبطن، ومن يمين لشمال، ويجسّ نبضه، ويفحص ما يقدر على فحصه فيه وهو صامت.

سأله الوزير عمّا به، فأجاب:

- الشيخ صالح كالغزال الشارد، سليم من كلّ مرض أو عيب.

قال صالح في مرج، وهو يشير إلى عينيّه المطفأتين:

- وهاتان يا دكتور، أليس فيهما عيب؟

قال الوزير:

- لا يا ولدي يا صالح.. ليس العمى عيباً.. أنت لم تجلبه لنفسك.. هذا من عمل الله، وإرادة الله ومشيتته فوق كل إرادة ومشية.

قال صالح:

- أعرف هذا يا عمي الوزير، ولكني أريد أن أمازح الدكتور.

قال الدكتور:

- ليت للمبصرين عُشْرَ معشار ما أنت فيه يا أستاذ صالح من الثقافة والعلم والأدب.

سأله الوزير:

- هل تعرفه يا حكيم؟

قال الطبيب:

- عندما رآته الممرضة، أسرعت إليّ وقالت:

«المريض الذي مع معالي الوزير، هو الشاعر الأعمى الذي تحدّثت عنه الصحافة، وفاز في مهرجان الجامعة».

قال صالح مبتسماً:

- إذن.. الأخت الممرضة عرفت أنني أعمى.

قال الطبيب:

- ولكنها معجبة بشعرك.

سأل الوزير:

- وأنت يا حكيم؟

قال الطبيب:

- وأنا أشدّ إعجاباً منها.

- لماذا يا حكيم؟

- لأنني.. لأنني..

قال صالح:

- لأنك يا سيدي شاعر.

سأل الوزير:

- هل أنت شاعر يا حكيم؟

- نعم يا سيدي الوزير... أقول الشعر.. أعني كنت أنظم الشعر وأنا طالب في الثانوي، وأردت أن أدرس في كلية الآداب، ولكن أُمِّي رغبت وأصرّت أن أدرس الطب، وقالت لي:

«يا بني.. أنت شاب طيب، تحب الخير للناس، ولا تحب المال كما يحبه غيرك من الأطباء، ولذلك يجب أن تدرس الطب يا ولدي، لتداوي المرضى الفقراء، ولا تأخذ منهم شيئاً».

- وهل عملت بنصيحة أمك يا حكيم؟

- أرجو ذلك.. عملت بنصيحتها، ودرست الطب، وتركت الشعر، فلا أكاد أنظم الآن إلا في المناسبات.

قال صالح:

- وهذه المناسبة.. ألا تنظم فيها شعراً يا دكتور؟

سأل الدكتور:

- أي مناسبة يا صالح؟

- قال صالح في مرج وفرح:

- مناسبة تخلّ العقل.. وزير عظيم قد الدنيا، ينقل شاباً فقيراً أعمى إلى المستشفى، ويعطل أعماله، ويتخلّى عن غدائه وراحته، من أجل راحة هذا الأعمى الذي يحدثك يا دكتور.

كان الوزير قد أدار ظهره وابتعد عن سرير صالح، ولكنّ نشيجه
لفت الانتباه إليه، فقال الدكتور:

- والله .. سأنظم في هذا الموقف الإنساني الفريد من نوعه،
قصيدة تعجبك يا صالح.

قال صالح:

- إذا أعجبتني، فسوف أقدم لك الجائزة التي نلتها في مهرجان
عكاظ.

قال الطبيب:

- لا يا صالح ... لن تكون قصيدتي مثل قصيدتك .. أنت شاعر
مبدع يا صالح، وأنا طبيب يهوى الشعر، ويحبّ الشعراء، ويفرح عندما
يأتيه شاعر إلى المستشفى، لأقضي لحظات فراغٍ معه، أستمع
إليه، وإذا عرف أنني أنظم الشعر، أسمعته بعض أشعاري.

قال صالح:

- هل تسمع ما يقوله الدكتور يا عمي الوزير؟

أدار الوزير وجهه إلى صالح وقال:

- يسعدني أن أرى طبيباً شاعراً .. وأرجو أن تدعوه يا ولدي، ليكون
من أركان مركز الأبرار.

سأل الدكتور عن هذا المركز، فأفاض صالح في شرح المشروع
الذي يتشكل مركز الأبرار منه، فقال الطبيب:

- أرجو أن تعتبروني عضواً مؤازراً في هذا المركز.

قال الوزير:

- بل أنت عضو مؤسس، وأحد أركانه الخمسة.

فتابع صالح:

وهم: عمي معالي الوزير، والحاج فاتح، وأبو معن، وإمام مسجد الطيبة، والدكتور الشاعر.

قال الوزير:

نسيت أن تذكر صالحاً وأبا صالح يا ولدي.

قال صالح:

- نسيت أن أذكر أبي.. فهو على الرغم من كونه فلاحاً بسيطاً، ولكنه مخلص، ونشيط، ويحب الخير للناس، ويسعى إلى خدمة الفقراء وأصحاب العاهات من أمثالي، أمّا أنا.. فما زلت طالباً يرعاه أبواه وعمه الوزير، ولا يقوى على فعل الكثير الذي يتطلبه المركز.

قال الوزير:

- عهدتك صادقاً يا ولدي.. وعرفتُك واثقاً من نفسك، ومن إمكاناتك الكبيرة، فلماذا تقول مثل هذا الكلام أمام عضو جديد نريده أن يكون فعالاً في المركز، متعاوناً مع أركانه؟ أنا لا أرضى أن تستهين بنفسك وإمكاناتك يا ولدي.

ثم التفت إلى الطبيب وقال:

- اسمع يا حكيم.. هذا المريض الذي يجلس أمامك على سرير الشفاء، هو الركن الأساسي في مركز الأبرار.. الفكرة فكرته، والمشروع مشروعه، هو المصمم والمخطط، ونحن منفذون، أنا

وكلّ من عدّهم لك... نحن منفذون، وهو العقل المدبّر والمدير لهذا المشروع الحيوي الذي نرجو من الله أن يوفّقنا لإكماله بأسرع وقت.

نقل الطبيب عينيه بين الوزير والشاب المريض، ثم قال:

- أنا سعيد جداً بما أسمع، ولعل هذه (الوقعة) المباركة يا صالح، تجرّ خيراً كثيراً.

قال صالح في حيوية:

- أتمنى أن أقع كل يوم مثل هذه الوقعة، إذا كان المشروع سيكسب عضواً عاملاً فعالاً مثلك يا دكتور.

قال الدكتور:

- صدق من قال: رَبُّ ضَارَّةٍ نَافِعَةٍ، وسوف تفرح أمي وزوجتي بهذا المشروع.. سوف تقدّمان له الكثير.

قال صالح:

- وأنت يا دكتور، أكبر من كل مال.. ستكون ثروة لهذا المشروع.



عندما خلا صالح بنفسه، وهو على سرير المرض، انطلق لسانه يقرأ ورده اليومي الذي اعتاد على قراءته منذ حفظ القرآن الكريم.. كان يقرأ كل يوم جزءاً من القرآن الكريم، ويدعو ببعض الأدعية المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم، ويصلي على النبي ما شاء الله له أن يصلي.. كان يفعل هذا بعد صلاة الفجر، ولكنه اليوم لم يستطع، فأجل ورده إلى وقت لاحق من اليوم، ولكنه سقط سقطته التي أدخلته المستشفى، وشغله الوزير والطبيب وقد فرغ الآن لنفسه.

كان يتلو آيات الله بصوته الرخيم، وكان يتفاعل مع ما يقرأ، فيتلون صوته حسب المعنى فيرتفع حيناً، وينخفض حيناً، وهو في موضع الاستفهام، غيره في موضع التقرير أو التعجب... إنه يعي ما يتلو جيداً، ولهذا يقف عند كلمة أو آية لا يتجاوزها، حتى يفهمها ويفهم المراد منها، فإذا فهمها تابع التلاوة.

وفيما هو غارق في سبحاته الفكرية مع كتاب الله العزيز، أقتحمت أمه الغرفة وهي تنوح وتصيح:

– أصابوك بالعين يا ولدي.. كيف وقعت يا صالح؟ أين العصا البيضاء؟ أين إحساسك بالأشياء؟ إنها العين الامة يا ولدي.. حماك الله منها، وحمى أولاد المسلمين.

ناداها صالح:

– تعالي يا أمي اجلسي بجانبتي.

صاحت:

– أجلس؟ أنا أجلس وأنت ممدد على هذا السرير؟ لا يا صالح.. ادعُ أباك ليجلس، أما أنا، فسوف أبقى واقفة، أرقبك بكلمات الله التامات من شر ما خلق، ومن غضب الله وعقابه وشر عباده، ومن همزات الشياطين.. شياطين الإنس قبل شياطين الجن.. شياطين الإنس ألعن من شياطين الجن يا ولدي، وقد حذرتك منهم، ولكنك لم تستمع لكلامي.. عندك كل الناس خير وبركة.. ولو كانوا، كما تقول، لما وقعت وقعتك السوداء هذه، ولما دخلت المستشفى، ورقدت على هذا السرير، بينما صاحب العين الامة التي أصابتك في بيته، مع زوجته وأولاده، ولا يهتمهم ولدي.. لا تهمهم صحته، ولا كسر رجله أو عظام ظهره.

صاح أبو صالح:

- على مهلك يا امرأة. يكفي هذا العويل وهذا النواح.. الولد بخير والله الحمد، ولم تُكسر رجله ولا عظام ظهره.

فصاحت في نواح:

- أنت لا تهتم بصالح. ولا تهتمك صحته ولا مصلحته.. غير كنيته فلن أناديك بعد الآن بأبي صالح.

- لاحول ولا قوة إلا بالله.. هذه المرأة الجاهلة تشتري الشر، وتشتري البلاء، انظري إلى ولدك... إنه أمامك.. أسأليه إن كان يشكو من شيء،، أسأليه،، إنه أمامك.

مسحت دموعها بكفيها، ثم قالت:

- طبعاً سيكون معك، وسيقول: ما في شيء.. ابني وأعرفه.

قال صالح بهدوء:

- تعالي إلى جانبي يا أمي الحنون..

فصاحت في زوجها:

- هل سمعت؟ أنا أمه الحنون.. إنه يعرف الذي يحبه ويعطف عليه ويحن إليه، من الذي لا يحبه ولا يحن عليه.

حوقل أبو صالح واسترجع، وهو يضرب كفاً بكف ثم قال:

- أنا راض بهذا.. اجلسي إلى جانب ولدك، وأعيرينا سكوتك ساعة، حتى أفهم ما جرى معه.

صاحت:

- ساعة يا رجل؟ تريدني أن أسكت ساعة لتتحدث أنت؟ ماذا ستقول؟ ماذا عندك حتى تقول أنت وأسكت أنا؟

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. جُنَّت هذه المرأة.

صاحت:

- أنا مجنونة؟

- قال صالح في رجاء:

- تعالي يا أمي حتى أحكي لك الذي صار.

- أسرعت إليه، وألقت بنفسها عليه، وقالت:

- احك لي يا ولدي احك، فقلبي مثل النار.

قال صالح لأبيه:

- تفضل واجلس يا أبي.

جرّ أبو صالح كرسي الخيزران إلى جانب السرير، وجلس وهو يقول:

- سوف تصنع ورشتنا كراسي أفضل من هذا الكرسي بإذن الله يا صالح.

حدجته زوجته بنظرة كالحب، وقالت:

- عقلي عند ابني، وعقله عند الكرسي... أين قلوبكم أيها الرجال؟

قال صالح في ابتسام عريض، وقد وضع ساعده على كتف أمه:

- كان يا ما كان، في حديث الزمان.. كان هنا شاب أعمى اسمه صالح، يحب أمه كثيراً، ويحب أباه أيضاً.. كان في بيته يحضر لجامعته، يقرأ خلاصة المحاضرة التي سمعها بالأمس، فقرع جرس الباب، والشيخ صالح سارح مع المحاضرة، فهب قائماً وانطلق نحو الباب ليرى من الطارق، فعثرت رجله، ووقع على الأرض، ثم جاء عمه

الوزير، وحمله إلى المستشفى، وجاء أعظم طبيب في المستشفى وعالجه، فلم يجد فيه شيئاً، فحمد الله وقال له:

«ليس فيك شيء يا شيخ صالح، وبإمكانك أن تعود إلى بيتك الآن».

ولكن معالي الوزير أبى أن يعود صالح إلى بيته، وأمر أن يبقى الشاب الأعمى في هذه الغرفة المريحة، ليسترخ فيها يوماً أو يومين.. ألف هاء انتهى. ما رأيك يا أمي في هذه الحكاية؟

ابتسمت الأم ابتسامة عريضة، ثم لفته بيدها القوية الطويلة وضمته فصاح بها زوجها:

- كسرت عظام ابنك.. الآن يحتاج إلى الطبيب فعلاً.

نظرت إلى صالح وقالت له:

- هل صحيح ما يقوله أبوك يا صالح؟

وانخرطت في البكاء، لأنها كسرت عظام ابنها.

ضحك صالح من أعماقه وقال:

- أضحككتي يا أمي وأنا مريضان.

فصاحت:

- مريضان؟ أنت مريضان ولا تقول ما بك يا ولدي؟ هل أنادي الطبيب؟

نهض أبو صالح عن كرسيه وهو بين الضحك والرتاء لهذا الموقف المبكي، وخرج من الغرفة، وعندما صفق الباب خلفه التفتت إلى صالح وقالت هامسة:

- ترى هل أصاب أباك مكروه يا صالح؟ والله إنني أعرفه سيّد

العارفين، فما الذي جرى له؟ لا بد أن عقله قد خالطه الخرف..
والأ.. فكيف يسمح لنفسه أن يترك ولده المريض، ويخرج؟

قال صالح:

- لا يا أمي .. ليس بأبي شيء مما تقولين.. إن عقله يزن
الجبال.

قالت وهي تمثل بكفيها:

- كلامك صحيح يا ولدي.. انظر إلى رأسه.. إنه أكبر رأس في
الطبية، وأكبر رأس في المستشفى ورؤوس كل الأطباء في هذا
المستشفى أصغر من رأس أبيك.

ضحك صالح وضحك وضحك، حتى خشيت عليه أمه، فصاحت به:

- ما بك يا ولدي؟ هل أصابك مثل ما أصاب أباك؟ هل أدعو لك
الطبيب يا ولدي؟

هدأ صالح نفسه ثم قال:

ياليت عقلي يكون مثل عقل أبي .. عقل أبي كبير يا أمي.. كبير
كبير.. ولو أن أباه علمه لكان أفضل من كثير من هؤلاء الأساتذة
والأطباء.. ولكنه زوجه مبكراً وهو ابن ست عشرة سنة.

قالت:

- وأنا كنت بنت اثنتي عشرة سنة.. أنا أصغر منه بأربع سنين.

قال صالح:

- قال: إن أمه تريد أن تفرح به، فزوجه، وقطعوا تعليمه، ورموه
في تلك القرية القاحلة.. يا حسرة عليه.

رمته بشرر تطاير من عينيها ولسانها، ثم قالت:

- تأدّب يا ولد... تأدّب يا صالح.. فالزواج ليس عيباً، وأمك هذه كانت وما زالت أحسن بنت في الطيبة.. اسأل أصحاب العيون ليقولوا لك أبوك فاز بجوهرة.. بأجمل بنات القرية والقرى المجاورة.

هل فهمت يا ولد؟

ربت على كتفها وقال:

- كلامك صحيح يا أمي.. أنا غلطان..

قالت:

- إذن قم وناد أباك.

قال:

- كما تحبين يا أمي.

وعندما تحرك شعر بألم شديد، فتغصّن وجهه، وعضّ على شفتيه، ولاحظت أمّه ذلك، فقالت في حزن:

- أنا ولا أنت يا ولدي.. أنت تتألم يا صالح. ابق في فراشك يا ولدي، وسوف أنادي أباك، ليأتيك بالطبيب.

- لا يا أمي لا.. لست بحاجة إلى الطبيب.

- ولكنك تتألم.

- سوف يزول الألم بسرعة إن شاء الله تعالى.

- ونعم بالله يا ولدي.

قال صالح في رجاء:

- أنا أحبك يا أمي، وأحبّ أن تدخلني أنت وأنا وأبي وأخي وأخواتي وعماتي وخالاتي الجنة.. أرجو أن نكون هناك في الجنة، كما نحن الآن هنا في هذه الدنيا.

قالت في استغراب:

- وأنا أحبّ ذلك... ولكن.. لماذا تقول هذا يا ولدي؟ هل مرضك لا سمح الله.

وانخرطت في بكاء مريع.

هدأ صالح من روعها، ثم قال:

- ليس بي ما يدعو إلى الخوف يا أمي.. لست مريضاً والحمد لله، ولكن الأعمار بيد الله، وأنا أرجوك يا أمي أن تعاملي أبي معاملة تليق به، لتدخلني الجنة.

صاحت في استنكار:

- استغفر الله يا ولد.. يا متعلم.. يا دارس الشريعة.. أبوك سيدخلني الجنة أم الله؟

قال صالح في رجاء:

- أمر الله بطاعة الزوجة لزوجها، ونهاها عن مخالفتة وعصيانة، وطاعة الله تدخل الجنة، ومعصية الله تدخل النار.

تساءلت:

- إذن... ما دخل أبيك بالجنة والنار؟

قال صالح:

- عندما تطيعين زوجك يا أمي، تطيعين الله تعالى.

- اسكت يا ولد .. هل صار الزوج إلهاً، استغفر ربك.

استغفر الله العظيم وأتوب إليه .. طاعة الزوج يا أمي من أمر الله... أمر الله تعالى، وأمر رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم أن تطيع المرأة زوجها، والمرأة التي تتفد أمر الله وأمر رسوله تدخل الجنة، والمرأة التي تعصي زوجها ولا تطيعه، هي تعصي أمر الله وأمر رسوله يا أمي، ولذلك أرجوك أن تطيعي أبي فيما يرضي الله تعالى، حتى نكون كلنا في الجنة يا أمي.

وضعت رأسها بين كفيها وبكت، ثم رفعت رأسها وقالت:

- ادع أباك، وقل له: إن أمي تحبك وتطيعك، تنفيذاً لأمر الله ورسوله، ولكن .. على ألا يشتط عليّ، ويقول لي في الصباح والمساء: الرجال قوامون على النساء.

قال صالح:

- استغفري الله يا أمي، فهذا كلام الله وليس كلام أبي.

قالت:

- أعرف أنه كلام الله .. أنا لست بقرة .. أنا إنسانة تصلي وتصوم وتعبد الله تعالى، ولكن أباك يكرر هذه الآية على مسامعي كل لحظة، كأنه لم يحفظ من كلام الله سواها.

ضحك صالح وضحك حتى استلقى على قفاه، ثم نادى:

- أبي... أبي... يا أبي.

دخل أبو صالح مسرعاً نحو ابنه في لهفة وقال:

- مالك يا ولدي؟ هل تشكو شيئاً؟

قال صالح:

- اشكو إليك أُمي التي لم تضحكني كما أضحكتني اليوم.

قال أبو صالح:

- الحمد لله ... يعني.. فرَدَّتْ وجهها أخيراً.

قال صالح:

- وسوف تبقى دائماً باسمه لك، ضاحكة معك، لا تردّ لك طلباً، ولا تعصي لك أمراً، ولكن بشرط.

- ما هو هذا الشرط؟

فصاحت:

- ألا تكرر على مسامعي.

قاطعها صالح وقال:

- نحن نقرأ كلام الله، وننفذ أوامره، وننتهي عما ينهانا عنه في كل لحظة .. أليس كذلك يا أُمي؟

قالت:

- بلى.. ولكن.. ما هو الشرط الذي تريد أن تشترطه على أبيك؟

ظننته..

قاطعها صالح:

- معاذ الله يا أمي.. الرجال قوامون على النساء .. هذا كلام الله،
نردده كل حين.

قال أبو صالح وهو يهز رأسه .

- فهمت .. فهمتُ الشرط.

قال صالح:

- لا يا أبي.. ليس هذا شرطاً، وليس من حقي ولا من حق أمي،
ولا من حقك أن نقبل هذا الشرط.

صاحت:

- إذن ما هو الشرط يا ولد؟

قال صالح:

- الشرط يا أبا صالح .. أن تسترضيها إذا أزعجتها أو أغضبتها،
وأن تسترضيك إذا أغضبتك، وتعود إلى طاعتك.

قال أبو صالح:

- شرط جميل، أنا أرضى به.

وقالت أم صالح:

- معنى ذلك، أنه سوف يسترضيني كل لحظة، لأنه في كل لحظة
يفضبني.

قال صالح:

- لا يا أمي.. أبي أكرم من ذلك.. وقد سمعته وهو يقول:

«ما أكرمهن إلا كريم، وما غلبهن إلا لثيم» وأبي ليس لثيماً يا أمي.

قالت أم صالح، وقد انفرجت أساريرها:

- وأنا أشهد أن أباك كريم، ولم يكن لثيماً معي ولا مع غيري يا ولدي.

وقال أبو صالح:

- وأنا أشهد أنها صابرة على الحلو والمرّة، ويكفيني أنها أنجبت ولداً نجيباً مثلك يا صالح.

قال صالح في حياء:

- أستغفر الله يا أبي... وإن كنت نجيباً فمنكما نجابتي يا أمي ويا أبي التقيين الورعين.

سمعوا صوت المؤذن ينادي لصلاة المغرب، فقال صالح:

- ما رأيك يا أبي أن تذهبا إلى بيتي لتستريحا، وغداً ألقاكما إن شاء الله.

قالت أم صالح:

- ليذهب هو، أما أنا، فسوف أبقى معك.

- أين؟

- هنا.. على هذا الكرسي أنام، ولن أنام وأترك ولدي مريضاً يتألم.

- ولكنني لست مريضاً يا أمي، فليس بي ألم.. وإن شئتم خرجت الآن معكم إلى البيت.

قال أبو صالح:

- مشكلة أمّك يا صالح، هذه العاطفة العمياء.. هيّا يا امرأة
فالمغرب غريب.

قالت أم صالح:

- إذن.. ليذهب معنا صالح، ما دام ليس مريضاً ولا متألماً من شيء.

- ولكن الطبيب طلب منه أن يبقى هنا ليسترخ.

- لا .. ليس الطبيب الذي طلب، وإنما هي أوامر الوزير. أليس
كذلك يا صالح؟

قال صالح، وهو ينزل عن سريره:

- كلام أمي صحيح.. سأذهب معكم.

قال أبو صالح بغضب:

- لا يا ولدي.. ما دامت هذه رغبة معالي الوزير.

- الوزير ليس طبيباً يأمر ويطاع.

- إنه فعل ذلك من أجل راحة ولدنا يا أمّ صالح.

- أنا أعرفُ بمصلحة ابني وأعرف أين يسترخ، ومع من.. معي أنا
وليس في هذه الغرفة.

قال أبو صالح في أسف:

- حسبني الله ونعم الوكيل.. سوف يزعل معالي الوزير، والطبيب
معاً.

قالت أمّ صالح:

- ليزعلوا .. مصلحة ابني فوق زعلهم.

قال أبو صالح:

- أنت أبو الذوق يا صالح.. أرى أن تستأذن الوزير والطبيب.

قال صالح:

- كلامك صحيح يا أبي.. سوف أكلّمهما بالهاتف.

قالت أم صالح:

- قل لهم: تعبت من القَعْدَةِ في المستشفى، وسوف أذهب إلى البيت مع أمّي وأبي.. وبس.

مدّ صالح يده إلى الهاتف، وإذا الهاتف يرن... رفع السماعة، وإذا الوزير على الخط.. قال له صالح:

- سبقتني يا عمي.. مددت يدي لأتصل بك، فسبق فضلك يدي.

اطمأن الوزير على صحة صالح، وسأله عن أبويه ثم قال صالح:

- أمّي تصرّ على خروجي من المستشفى إلى البيت، وقد وافقتُها على طلبها، لأنني ما عدت أشكو من شيء والحمد لله.

وتحدّث أبو صالح مع الوزير، وفهم منه أنّ ولده صالح وضعه سليم والحمد لله، ويستطيع أن يذهب معهم إلى البيت إذا أحبوا.

قال أبو صالح:

- إذا كان الأمر كذلك، فسوف نذهب جميعاً إلى البيت الآن، لنلحق صلاة المغرب.

طلب منه الوزير أن ينتظروا لحظات، فالسيارة الآن في المستشفى لتأخذهم إلى البيت، ودعاهم إلى الغداء في بيته في اليوم التالي.. حاول أبو صالح أن يعتذر، ولكن الوزير أصرّ على ذلك.

قال أبو صالح كالمحدث نفسه، وهو يضع سماعة الهاتف.

- ما أروع هذا الوزير! سبحانك يا ربي.. من يكون صالح، ومن يكون أبو صالح، حتى يدعوهم هذا الرجل الفاضل إلى الغداء في بيته؟

ابتهل صالح في تأثر وانفعال:

رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ، وأن أعمل صالحاً ترضاه، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين.

ثم التفت إلى أبيه وقال:

- أنت لست قليلاً يا أبي، وكذلك أمي الغالية.. أنتما تستأهلان كل خير، وكل تكريم، وعمي الوزير رجل طيب، فاضل، نبيل، بكل ما تعنيه هذه الكلمات من المعاني.

قالت أم صالح:

- أنا معكما.. هذا الوزير رجل شهم، أنت وأبوك يا صالح لا يرضى الشرطي ولا الحارس القضائي، ولا أيّ موظف مهما كان صغيراً، أن يكلمكما إلا وهو رافع أنفه، ومن طرف لسان، وبينما هذا الرجل الفاضل وزير ولا كل الوزراء.. ومع ذلك يهتم بك كل هذا الاهتمام يا ولدي، ويدعوننا إلى مزرعته، ويرسل سيارته لجلبنا من القرية، ويدعوننا إلى منزله، ويغرقنا بهداياهم، ما هذا؟ هل هذا بشر؟

قال صالح في ابتسام:

- ما رأيك يا أمي.. هل يعمل هذا من قبيل العطف على ولدك الأعمى؟

فصاحت:

- استغفر الله يا ولدي، هذا الرجل أكبر من هذا .. إنه يحبك من أعماق قلبه، وسوف يزوجك ابنته أروى... اسألني أنا .. أنا قلبي لا يكذبني وهو يتحدث معي.

قال أبو صالح في امتعاض:

- عادت حليلة إلى عاداتها القديمة... أرجوك يا أمّ صالح أن تكفّي عن هذا الكلام.. وقد قال لك صالح: حتى لو رضيت هي وأمها وأبوها، فإنه لا يرضى أن يتزوجها.. فكفّي عن هذا أرجوك... نظرت إليه في عتاب وقالت:

- سوف أكف عن الكلام في هذا، ولكني أرجو ألا تتسوا كلامي هذا.. تذكّروه جيداً، وسوف ترون.. وسوف تقولون: قالت أمّ صالح، ولم نصدّقها.

ثم همست في أذن صالح:

- قلب الحرّ دليله يا ولدي، وأمك حرّة بنت حرّ يا صالح..



الفصل الثامن

كانت أمّ صالح تنظر إلى الأثاث في انبهار، فهي لم تدخل قصرًا من قصور الكبراء قبل اليوم، ولهذا كانت مأخوذة بكل شيء في قصر الوزير، وما دخلت حجرة إلا رأتها أجمل من أختها، وكانت لا تملك لسانها من التعبير عن الإعجاب بكل ما ترى.. ولكن الذي استوقفها أكثر كراسي الخيزران تحت الدالية.. سألت السيّدة نفيسة زوجة الوزير:

- هل هذه الكراسي الجميلة من صنع العميان عندكم؟

ضحكت أروى من هذا السؤال، فحدجتها أمها بنظرة عتاب، فوضعت كفّيهما على فمها، وابتعدت عن أمها التي أجابت:

- يا أختي أمّ صالح.. هذه الكراسي يصنعها المبصرون الحاذقون، أمّا العميان فلا يستطيعون، لأن صناعتها دقيقة جداً.

- ولكنّ ابني صالح عمل ورشة في الطيبة لعميان القرية، من أجل صناعة كراسي القش، وكراسي الخيزران أيضاً.

قالت نفيسة:

- شيء حلو والله... أرجو أن يتمكنوا من صناعتها.

- العميان يا حاجة نفيسة أذكاء، ماهرون، عوّضهم الله عن عيونهم بأشياء أخرى... ولدي صالح مثلاً أعمى، ولكنه أذكى من كل أهل الطيبة، وما يعمل لا يستطيع كل أهل الطيبة عمله، مثلاً حفظ القرآن وهو صبي صغير، وغيره من (المفتحين) لم يحفظوه.. حتى أبوه لم يستطع حفظ ربع القرآن الكريم.

قالت نفيسة:

- بارك الله لكم في ولدكم، فقد عرفت عنه الكثير من زوجي.

- زوجك الوزير مثلاً... هل يحفظ القرآن؟

- لا، يحفظ بعض أجزاءه وبعض السور.

- ولكنه يحبّ الشيخ صالحاً، ولا يحسده كأولاد الطيبة.

ابتسمت نفيسة ابتسامة خفيفة، وقالت:

- زوجي يحبّ الشيخ صالحاً كما يحبّ أولاده.

قالت أمّ صالح:

- وأكثر!

نظرت السيدة نفيسة إلى أم صالح، وقرأت البراءة في وجهها، والصدق في لهجتها، والبساطة في تصرّفاتها، فلم تستكر كلامها، وادّعاءها بأن زوجها الوزير يحب ابنها أكثر من أولاده، بل قالت:

- سمعت منه أنه سوف يسعى ليستكمل صالح دراساته العليا، ولن يتركه يضيع لحظة من عمره، فأمامه الماجستير، والدكتوراه، بعد الليسانس.

قالت أم صالح:

- سمعت هذا الكلام من الشيخ صالح، ولكنني لن أوافق.

- لماذا؟

- يا أختي نفيسة.. متى سيتزوج؟ هل سيتزوج تلك الشهادات التي يحلم بها؟ أريد أن أرى أنا، وأبوه أيضاً، أولاده يملؤون علينا الدار بصياحهم وألعابهم.

قالت نفيسة:

- يجمع بين الأمرين.

- كيف؟

- يتزوج ويتابع دراسته.

- اعترضت أمّ صالح:

- كيف؟ المفتّحون لا يستطيعون أن يحملوا بطيختين في يد واحدة، فكيف يستطيع هو، وهو أعمى كما تعلمين؟

- نهضت نفيسة، فنهضت معها أمّ صالح وهي تقول:

- عند أبي معن بنت مثل القمر ليلة البدر. أدعو الله أن يجعلها من نصيب ابني الشيخ صالح، وإن كان - يا حسرة - لا يستطيع أن يرى جمالها وحُسنها.

فيما كانت المرأتان تسيран في حديقة القصر، كانت أمّ صالح تطري ولدها، وجمالها، وتقول:

- والله لو حصل النصيب، وتزوَّج ابني صالح من بنت أبي معن، ورزقهما الله أولاداً، فسوف يكونون في مثل حُسن سيّدنا يوسف.

قالت نفيسة:

- عليه الصلاة والسلام.

وتابعت أم صالح:

- ولكنّ، يا حسرة، أبو معن رجل غنيّ، ونحن مستورو الحال، ولذلك، فهمتُ من أمّها أنهم لن يزوّجوها إلا لولد من أولاد الأغنياء.

- يعني .. خطبتها منها، فقالت لك هذا الكلام؟

- لا .. لم أخطبها صراحة، ولكنني عندما أبديت إعجابي بها،
قالت:

- «تقدم لخطبتها أكثر من عشرين شاباً، ولكنهم لم يعجبوها
فرفضت أن تزوج ابنتها من أي واحد منهم» فسكت، ودعوتُ أن
يرزقها الله ابن الحلال الذي يعجبها ويسعدها.

سحبته السيدة نفيسة من يدها إلى أرجوحة قرب البركة، وجلست
وحاولت أن تجلسها معها، فأبت، وقالت في شبه غضب:

- ما هذا يا أختي نفيسة؟ هل نحن صغيرات حتى نركب الأرجوحة؟

ابتسمت السيدة نفيسة، وجرتّها من يدها، وهي تقول:

- اجلسي يا أمّ صالح، فهذه للكبيرات مثلي ومثلك، وليست
للصغيرات.

وأشارت إلى أرجوحة الصغار وقالت:

- تلك الأرجوحة للصغار.

ابتسمت أمّ صالح، فقد شعرت بارتياح، ورفع الكفة، ثم قالت:

- عفواً يا ست نفيسة، ظننتك تمزحين معي، وتريدين أن تضحكي
عليّ أنت وبناتك.

قالت نفيسة في سعادة، وهي ترى طيبة القلب التي تتمتع بها هذه
المرأة التي لم تعرف لها من تماثلها من النساء اللواتي تعاشرهنّ
وتصادقهنّ:

- لا يا أم صالح أنت أختي، وحقّ الأخت على أختها أن تكرمها، لا
أن تؤذيها.

انتفضت أمّ صالح، وحاولت أن تقفز من فوق الأرجوحة، فلم تستطع، فنظرت إلى نفيسة وقالت:

يا ويلي ويا سواد ليلى ياست نفيسة.. أنا أسخر منك؟ أنت أختي، أنا أحبّك كما أحبّ أختي الوحيدة خديجة، بل أكثر، فأنت إنسانة رائعة، لاتسبين أحداً كأختي، ولا تتكلمين إلا بخير، فكيف لا أحبّك؟ طمأنتها نفيسة، وقالت:

- هكذا الأخوات يا أمّ صالح.

قالت أم صالح:

- والله الذي لا إله إلا هو، ذكركم أطيب من رائحة الورد الجوري.. ولدي الشيخ صالح يذكركم دائماً وأبداً بخير، وكذلك أبو صالح، حتى غرت منكم... أنتم والله في القلب قبل أن نعرفكم، فكيف بعد أن عرفناكم، وقضينا هذه الساعة الحلوة بينكم؟

وهكذا استمرّ الحديث بين المرأتين الطيبتين، بينما كان الوزير مع صالح وأبيه، يتحدثون حول مشروع مركز الأبرار، والمراحل التي قطعوها في تنفيذه، والأموال التي جمعوها له.

تذكر الوزير أمراً أضاء وجهه، فقال: نسيت أن أخبرك يا صالح، ويا أخي أبا صالح، بأن الدكتور قد تبرّع هو وزوجته وأطفاله تبرعات سخية جداً، سوف تغطّي كثيراً من النفقات، وقال لي: سوف يؤسس وحدة صحية في المركز، وسوف يشرف هو بنفسه عليها.

فهتف الشيخ صالح في همس وقور:

- الله أكبر.. الله أكبر.. الحمد لله الذي وهبنا هذا الطبيب الفاضل، الذي اختصر لنا الطريق، وحقق ما نحلم به.. الحمد لله.. ألف حمد لله على ما تفضل به وأنعم.

قال الوزير في سعادة:

- كلّ هذا التوفيق ببركة إخلاصك وصدقك يا شيخ صالح.

بكى الشيخ صالح من شدة الفرح، حتى علا نسيجه، ودمعت عيون الوزير وأبي صالح الذي قال:

- أرجو أن يكون ولدي مباركاً.

قال الوزير:

- هذا ما استيقنته من خلال ما مرّ بنا من أحداث يا أبا صالح.

قال صالح بصوت باكٍ متهدج:

- أنا عبد فقير قليل يا أبي ويا عمي، ولكنها بركتكم وبركة الصالحين من أمثالكم.. كالإمام العابد المتبتل، والحاج فاتح التاجر الغني الشاكر الذي يبذل للمشروع بسخاء من لا يخشى الفقر.

قال أبو صالح:

- الحاج فاتح، حفظه الله وإياكم، يبذل للمشروع وغيره، وأريد أن أطلعكم على سرٍّ ما أظنّ أحداً يعرفه من أصحابه غيري.

سكت أبو صالح، فحثه الوزير على الكلام، فقال:

- أخشى أن يزعل إذا علم أنني أفشيت هذا السرّ.

- هل دعاك إلى كتمانك؟

- لا.. ولكني لاحظت حرصه على أن يبقى سرّاً بيني وبينه.

قال الوزير:

- إذا كان الأمر كذلك، فلا بأس من الحديث عنه.

سكت الوزير لحظة كمن يفكر، ثم قال:

- نحن نقرأ في الكتب عن ورع الصالحين، وعن كرمهم، وبذلهم، وشجاعتهم، وعلمهم، وسمو هممهم، ولو لم يتحدث الذين يعرفونهم عنهم، لما قرأنا تلك المآثر والأخبار الرائعة التي تدعو إلى التأسي بهم.

قال أبو صالح في فرح:

- إذا كان الأمر كذلك، فاعرفوا، باختصار شديد، أن الحاج فاتحاً يعول سبع عشرة أسرة فقيرة مستورة، وأنا أساعده في ذلك بجهدى، وهو يبذل لها بسخاء.. وتلك الأسر تظنّ أني أجمع لها من الحاج فاتح ومن زملائه التجار، ولا تعرف أنّ كل ما يُقدّم إليها، إنما هو حُرٌّ مال الحاج فاتح.

فهتف الوزير في إعجاب:

- الله أكبر.. ما أروعك يا حاج فاتح... تجلس معنا فلا تتكلم إلا إذا دعت الضرورة إلى ذلك، وتتبرع للمشروع على استحياء ولا نكاد نعرف ما تتبرع به إلا من خلال اللجنة التي تنظر إليك في تقدير وإعجاب.. ما أروعك.

قال أبو صالح:

- كم قلت للشيخ صالح أن ينظم قصيدة في مدح الحاج فاتح، ومدحك يا معالي الوزير، فكان يأبى، مع شدة حبه لكما، ومعرفة مآثركما.

قال الوزير:

حسناً فعل، وإلا... أذهب حسناتي بكلام تنتشي به لحظات، فتأكل
النشوة العارضة ما يقدم الواحد منا من حسنات، هذا إذا كان ما
نقدمه حسنات.

قال أبو صالح:

قلت له: يا ولدي يا شيخ صالح، سيفرح معالي الوزير، وسيفرح
الحاج فاتح بشعرك فيهما، ولكنه كان يقول:

«لا... لن يفرحاً بشعري، بل قد يستاءان مني ومن شعري، وقد
يعدّاني منافقاً وممالقاً ومرائياً».

قال الوزير:

- القسم الأول من كلامك يا شيخ صالح صحيح.. ما كنا لنفرح
بمدحك لنا، والقسم الثاني غير صحيح، فما يخطر على بالنا أن تكون
منافقاً أو مرائياً.. حاشاك يا ولدي، فأنت أكبر من هذا وذاك.

سكت الوزير لحظة، ثم نادى الخادم، وقال له:

- هات الهدية للشيخ صالح.

سأل صالح عن الهدية ومناسبتها، فقال الوزير:

- أما المناسبة، فظهور شيء جديد تستفيد منه في حياتك
الدراسية، فقد ظهر شيء جديد ومهم جداً يا ولدي، وهو القراءة
بطريقة الأوبتكون.

- قرأت عنها في مجلة المكفوفين التي تأتيني من لندن، وقالوا في
المجلة عن ذلك الجهاز العجيب: إنه ظهر عام ١٩٧١ وقالوا إنه يتكوّن من

كاميرات صغيرة، وشاشة صغيرة، وجهاز بحجم آلة التسجيل الصغيرة، فيه فتحة تسمح بدخول الأصبع السبّابة فيها، من أجل القراءة.

قال الوزير:

- بارك الله فيك يا ولدي، ظننت أنني سأفاجئك بهذا الجهاز العجيب الذي وصل إلى العاصمة قبل شهر واحد فقط.. هاتفتي الشركة المختصة بعد وصوله بأيام، فحجزت لك جهازاً... وقد قالوا لي:

إن هذا الجهاز يساعدك على قراءة المواد المطبوعة، من كتب وصحف ومجلات وسواها، وذلك بتحويل الرموز المكتوبة إلى رموز محسوسة تحت السبّابة، فأنت تستطيع أن تحسّ بشكل الحرف المقروء على الشاشة الصغيرة، بحيث تسمح للمعلم بمراقبة ما تقرأ أنت أو أي متعلم.

سأل أبو صالح عن ثمن هذا الجهاز العجيب الذي سيجعل الأعمى كالْبصير في القراءة والمطالعة، فقال الوزير:

- كل شيء يهون في سبيل الصعوبات التي تعترض ولدي الشيخ صالح، وتعيّنه على أن يكون كفوّاً لزملائه في الجامعات.

هجم أبو صالح على يد الوزير، وأخذ يقبلها ويدعو لصاحبها، والوزير يحاول سحبها من بين كفيّهِ القويتين، فلا يستطيع.



الفصل التاسع

نجح مشروع مركز الأبرار نجاحاً باهراً، وصار المركز كخلية النحل، التلاميذ الصغار يتعلمون في النهار، والأميون الكبار يتعلمون في الليل، ولجنة تحفيظ القرآن تعمل في المسجد والغرف التي ألحقوها به، والورشة الصغيرة صارت كبيرة، وكثر العاملون فيها من المكفوفين ومن المبصرين، ومدرسة المكفوفين نجحت هي الأخرى، وكثر المنتسبون إليها من القرى والبلدات القريبة والبعيدة، بل انتقل إليها للتعلم فيها بعض الأكفاء من أبناء المدينة، وكثرت أوقاف المركز، وارتفع شأن الشيخ صالح الذي أنهى دراسته في كلية الشريعة، وانتسب إلى قسم الدراسات العليا في الجامعة، ولكن دراسته لم تصرفه عن قريته، ولا عن مركز الأبرار، فقد كان يتردد عليهما في الأسبوع مرتين... لقد قسم وقته قسمين، للجامعة وللمركز.

كان يشرف بنفسه على المركز، على الرغم من وجود الإمام الذي تفرغ للمركز، وشغل نفسه به، فلا يكاد يرى إلا فيه.. لقد وزع وقته بين المركز والمسجد، فإذا سها عن المركز يوماً، أنب نفسه وعاقبها، واعترف للشيخ صالح بتقصيره، وطلب منه أن يستغفر الله له، إضافة إلى استغفاره هو، مخافة أن يكون تقصيره من باب الإهمال المتعمد، وهذا خيانة لا يرضى بها.

كان الشيخ صالح يتابع ما يستجد في مجال تعليم المكفوفين، فإذا سمع أو قرأ عن ابتكار جديد، سارع إلى الوزير يستعين به في تأمينه له، بحكم علاقاته مع الجامعات والأوساط الثقافية العربية والغربية، وكان الشيخ صالح ينقل ما يتعلمه إلى تلاميذه المكفوفين في المركز، ولا يستأثر بشيء لنفسه، ولا يضمن عليهم بمعرفة أو علم.. ولهذا أحبه سائر المكفوفين، وصار ملاذهم، يلجؤون إليه كلما حزنهم أمر، فيحل لهم مشكلاتهم، ويقضي لهم حاجاتهم، ويساعد الفقير والمحروم والمريض والمدين، وكانت اللجنة ورئيسها الوزير قد فوضوه بصرف أي مبلغ يرى ضرورة صرفه في المجال الذي يراه.

وقد ساعده هذا على تقديم العون لمنتسبي المركز، فيسدّ دين هذا، ويداوي ولد ذاك، ويشتري الهدايا، ويقدمها إليهم في المناسبات، والكل راضون عنه، وعن حسن تصرّفه في إدارة المال والأعمال، حتى صار اسمه على كل لسان، وصارت قرية الطيبة ومركز الأبرار حديث الصحافة والناس، وكلهم يتحدثون عن ذلك الشاب الأعمى المثقف الذي بدأ من الصفر، ثم هياً الله له من يعينه على تحقيق طموحاته وأهدافه السامية، فخدم قريته أعظم خدمة، بنى فيها مركز الأبرار بضرعه وتشعباته، ومهّد دروبها المترية، ثم سعى إلى تعبيدها ووصلها بالمدينة، وحفر بئراً ارتوازية ليشرب منها أهل القرية، بدلاً من المياه الملوثة التي كانوا يجمعونها من الأمطار الشحيحة ثم جلب إليها الكهرباء، حتى صارت واحة داخل صحراء.

وتحدثت نساء القرية عن هذا الشاب الأعمى الزاهد الذي لم يتزوج حتى الآن، مع أنه تجاوز العشرين، وهي سنّ الزواج في القرى، بسنوات، وهو ما لم يعتد عليه أهل القرية، قالت إحداهن لأُمّه:

- لماذا لا تزوجين ابنك الشيخ صالح؟

فأجابتها:

- حتى يأتي النصيب.

قالت امرأة ثانية:

- النصيب لا يأتي.. النصيب يأمرك أن تذهبي إليه.

وقالت ثالثة:

- كلّ بنات القرية يتمنين الزواج منه.

وقالت رابعة:

- بنتي مثلاً كانت تقول لبنات عمها: لو خطبني الشيخ صالح لوافقت.

فقالت لها بنت عمها: ولكنه أعمى، فردّت عليها بنتي: صحيح ولكنه أفضل من مئة (مفتّح).

وكانت أمّ صالح تتمنّى لو يوافق صالح على الزواج، لزوجته من بنت أبي معن، تلك الفتاة الجميلة التي تقول للقمر البدر: غب حتى أجلس مكانك.

حدثت أباه بما تسمع من نساء القرية، وأبدت تخوّفها من أن تذهب بنت أبي معن من أيديهم، فخطّابها كثر، وهي بنت رائعة، وأبوها من وجهاء القرية ومن أغنيائها، وسوف يجهّز بنته بأحسن جهاز وأغلام، وقد يشتري لهما بيتاً جميلاً، لأنها بنت مدلّة، ويحبّها كثيراً.

قال أبو صالح:

- ونحن من بسطاء القرية ومن فقرائها، وابننا أعمى.

مسحت دمة هريت من عينها وقالت:

- يا حسرة عليك يا ولدي يا صالح... لو كانت لك عينان مبصرتان، ورأيت بهما فطومة بنت أبي معن، لقبّلت يديّ ورأسي، وطلبت مني أن أخطبها لك.. لكن.. يا حسرة... أنت لا ترغب في الزواج، لأنك لا ترى، ولا تعرف القبح من الجمال.

خنقتها العبرات، فبكت وأنشجت بحرقة، وزوجها يحاول تهدئتها ولكن بلا جدوي...

نهضت إلى الباب ونادت ابنها صالحاً، فخفّ إليها صالح مذعوراً:

- ماذا بك يا أمي؟ خيراً إن شاء الله.

قالت في بكاء:

- من أين يأتيني الخير، وأنت تحسه بأمّك، ولا تتفدّ لها طلبها.

قال صالح:

- أعوذ بالله يا أمي.. إذن أنا ولد عاق ولا أدري.

قال أبو صالح:

- لست عاقاً يا ولدي.. ليت كلّ الأبناء يكونون مثلك.. الله يرضى عليك يا ولدي.

وقالت أم صالح:

- اسمعني يا ولدي.. فطومة بنت أبي معن، أريدها كنّة لي... والله يا ابني مثل القمر، ولكنّ عيبك أنك لا ترى.

صاح أبو صالح:

- افهمي ما تقولين يا امرأة.. عيب.. حرام..

قالت:

- الذي يقول الحقيقة تقول له: عيب.. حرام.. أليس ابننا أعمى؟

فصاح بها أبو صالح من جديد:

- أم صالح!.

قالت:

- ابني أعمى، ولكنه أفضل من كل (المفتحين).. أنا أعرف ابني، وأحبّه، وأريد له الخير، ولكنه لا يفهم.

ضمَّ صالح أمّه إليه وقال:

- هذا رأيك فيّ يا أمي، لأنني ولدك، وكما يقول المثل:

صاح أبو صالح:

- دعنا من أمثالك أنت الآخر يا صالح، وقل لأُمّك: هل ترغب في الزواج حتى تخطب لك الفتاة المناسبة؟

صاحت الأم:

- رغب أم لم يرغب.. أنا أرغب .. أريد أن أزوّجك لترتاح وتريحني يا ولدي.. أريد أن أرى أولادك قبل أن أموت، فالشمس صارت على الحيطان، وقاربت أن تغيب.

قال صالح في رفق:

- توكلّي على الله يا أمي، فأنت ما زلتِ في عزِّ صباك وشبابك.

صاحت:

- إذا أردت أن أذهب إليهم الآن لأخطبها لك، ذهبت.

صَفَّقَ أبو صالح كفًّا بكفٍّ وهو يقول:

- لاحول ولا قوة إلا بالله.. جنّت المرأة.

وقال صالح:

- تذهبين الآن يا أمي في هذه الليلة الباردة؟ الصباح رياح يا أمي.

قالت في فرح:

- قبل أن أعجن عجيني أذهب إليهم.

- لاحول ولا قوة إلا بالله.

قال صالح:

- سأفترض أنهم يرضون بي زوجاً لابنتهم، وأن البنت ترضى الزواج من هذا الضعيف الأعمى.. ولكني سأصلي صلاة الاستخارة.. سأستخير ربي قبل الخطبة.

قالت أم صالح:

- لا تعذب روحك يا ولدي.. قلت للشيخ محمد الإمام أن يعمل لك استخارة، وأخذت له من أثرك، وسوف يعطينا النتيجة غداً.

سأل صالح:

- هل قال لك هو ذلك؟

- لا... أنا لم أراه.. كان في المركز.. ما شاء الله... الإمام عشق المركز.. لا يراه أحد إلا فيه.

- إذن..

- إذن.. أمك لا تغلب يا ولدي... ذهبت إلى زوجته، وأعطتها أثراً منك، وطلبت منها أن يعمل زوجها لك استخارة.

تنهّد صالح:

- الحمد لله.. والله لو كان الإمام أخذ منك الأثر، ووعدك بشيء، لأقمت عليه الدنيا.

- لماذا يا ولدي؟ لأنه يريد مصلحتك؟

- لا .. لأن الذي يفعل هذا .. أعوذ بالله .. أعوذ بالله .

قال أبو صالح:

- استخر الله يا ولدي حسبما جاء في السنة النبوية، ثم استشر الإمام في خطبتها .

صاحت أم صالح:

- وما دَخَلَ الإمام بهذا؟ هل هو سيخطب ويتزوج أم صالح؟

قال أبو صالح:

- يا أم صالح.. يا أم صالح.. ما خاب من استخار، ولا ندم من استشار.

قالت:

استخرت أم لم تستخر.. استشرت أم لم تستشر.. سأخطب لك فطومة، وأزوجه منها، وأكسر عيون كل الذين خطبوها .

قال صالح مبتسماً:

- تكسرين عيونهم بهاتين العينين المطفأتين يا أمي؟

نعم... بعينيك العمياوين هاتين يا ولدي، وسوف ترى.

وأجهشت بالبكاء .

قال أبو صالح:

- قم إلى فراشك يا ولدي، فقد انتصف الليل أو كاد .

قالت أم صالح:

- لا تتس صلاة الاستخارة.. لاتقل لي: نسيت... مفهوم؟

- مفهوم يا أمي.

جدّد صالح وضوءه، ثم صلى صلاة الاستخارة ودعا دعاءها، ثم استلقى على سريرته، يستغفر ربه، ويدعو دعاء النوم.

عند أذان الفجر كانت أمّه تهزه وتوقظه:

- قم يا شيخ صالح... قل لي ماذا رأيت في منامك.. هل أذهب لأجس نبضها ونبض أهلها؟

قال صالح، وهو يتحسس ساعته ليعرف الوقت:

- هل صليت الفجر يا أمي؟

- لا.. سأصلي معك... أم أنك ستذهب إلى المسجد؟

- طبعاً سأذهب إلى المسجد... يا الله... يا رحمن.. يا رحيم.

قالت في لهفة:

- قل لي.. ماذا رأيت في منامك! حنطة أم شعيرة؟

- لم أر شيئاً يا أمي.

ألم تصل صلاة الاستخارة؟

- بلى... صليت، ودعوت، وسوف ييسر الله لي ما يراه خيراً لي، في الزواج منها أو عدمه.

قالت:

- على أي حال.. اذهب إلى المسجد، واسأل الإمام عما رأى في منامه.

بعد صلاة الفجر، جلس الصديقان الحميمان: صالح والإمام، وتحدثا في أحوال المركز وما سيفعلانه في هذا اليوم، ولم يتطرقا إلى الاستخارة أو الزواج أو أي شيء آخر لا صلة له بمركز الأبرار.

افترق الرجلان، كل إلى بيته، وإذا أم صالح بالباب ترتجف، وتستقبل ولدها صالحاً بقولها:

- قال حية قال.. والله صاحبك هو الحية.. وحنش أيضاً.. ولكنك، يا حسرة، لا تستطيع أن ترى وجهه الأسود كالحنش.

سحبها من يدها إلى الغرفة وهو يسألها عما دعاها إلى الوقوف في الباب في هذا الصباح البارد، حتى صار جسمها يختلج ويرتجف من البرد، فقالت:

- صاحبك الشيخ محمد.. هذا الحنش هو الذي جعلني أقف هاهنا أنتظرك، لأرى ما تفعل استخارته بك.

- عن أي استخارة تتحدثين يا أمي؟

- ألم يقل لك ما رآه في منامه؟ ليته كان أعمى حتى لا يرى.. لا في يقظته ولا في منامه.

استغفر صالح ربه على هذا الذي يسمع في هذا الصباح، وتذكر ما قالته أمه في الليلة الفائتة، فعاد الابتسام والاطمئنان إلى نفسه، وقال لأمه في حب:

- هل رأيت الإمام يا أمي؟

- لا .. لم أره، ولا أريد أن أرى هذا الحنش.

- حرام يا أمي.. ولا تتابزوا بالألقاب... هكذا يأمرنا الله تعالى في كتابه العزيز... ثم ... أرجوك أن تحدّثيني من البداية، إلى النهاية، حتى أفهم، فأنا الآن طَلَّطَمِيس من الجمعة إلى الخميس.

- حاشاك يا ابني... الطَّلَّطَمِيس هو، أمّا أنت، فسيّد العارفين.

استغفر صالح وحوقل ثم عاد إلى رجائها أن تحدّثه عما جرى ليفهم..

استجمعت الأمّ شجاعته وقالت:

- رأى الشيخ محمد في منامه أن حيّة جميلة الألوان، لم يرف في حياته مثلها، تريد أن تلفّك بجسدها البارد، وأنت تحاول الابتعاد عنها، لأنك خائف منها، وأنا أمّك أقول لك: تحملها يا صالح.. لا تبتعد عنها يا ولدي.

هذا هو المنام الذي رآه صاحبك الإمام في الاستخارة، عمى الله عينيه حتى لا يرى مثل هذا المنام المخيف.

سألها صالح:

- متى رأيته يا أمي حتى يحكي لك هذا المنام؟

- بعد أن ذهبت أنت إلى المسجد، صليت الفجر وحدي، ثم ذهبت إلى بيته، وكان هو في المسجد فقصت زوجته هذا المنام عليّ.

قال صالح:

- ولكنه لم يذكره لي.

قالت في انفعال:

- لأن وجهه أسود .. وقلبه أسود، فكيف يحكيه لك؟

استغفر صالح من جديد وحوقل، ثم قال:

- أين أبي؟

- ذهب إلى الحقل... كأن الحقل سيطير.. قلت له: اجلس حتى يعود صالح ونفطر معاً، ولكنه ركب رأسه، وأصرَّ على الذهاب... هكذا هو، رأس يابس مثل هذا الحطب الذي نتدفاً على ناره.

ابتسم صالح وقال:

- إذن تنتظره حتى يعود لنفطر معاً.

هجمت عليه، وقبّلته بين عينيه، وقالت:

- كم أنت طيب يا ولدي.. آه لو أن هاتين العينين مفتحتان... ولكن.. لا يهملك، فقلبك مفتّح، وعقلك مفتّح والحمد لله.

- الحمد لله، وألف شكر لله، فقد غمرني بفضله يا أمي وبكرمه.

قالت في حزن:

- لكنه لا يكملها مع أحد..

- استغفر الله يا أمي.. هذا الكلام لا يجوز... استغفري الله يا أمي، فأنت امرأة مؤمنة والحمد لله، وسوف نذهب هذا العام إلى الحج معاً... أنت، وأبي، وأنا إن شاء الله تعالى.

فرحت أم صالح، وكادت تزغرد، لولا أنها تذكرت تعليمات صالح في هذا الشأن، ثم غاضت الفرحة من وجهها، وحلّت الكآبة محلّها كهالة صفراء، وأحس صالح بما اعتراها بفطنته ومعرفته بأمّه،

فسألها:

- ما رأيك يا أمي؟ ظننتك ستطيرين من الفرح لهذا الخير.

قالت في تردد وحزن:

- يا ليت يا ابني يا ليت، فالعين بصيرة واليد قصيرة، والذهاب إلى الحج مُكَلَّفٌ جداً يا ولد وليس مع أبيك إلا ما يصرفه علينا يوماً بيوم.

قال صالح:

- ادّخرت بعض المال الذي كنت أكسبه من هنا وهناك، وهو يكفينا للحج.

فتحت عينيها جيداً وقالت:

- احذر من الحرام يا ولدي.. مال المركز حرام، ولا يجوز أن تأخذ قرشاً منه، احذر أن تمتدّ يدك إليه. ظهر السرور في وجه صالح، وهو يسمع تحذير أمّه من المال الحرام، وقال:

- بارك الله فيك يا أمي.. أنت تعلمين أنّ يدي لم تمتدّ إلى الحرام وأنا صغير جاهل، فكيف تمتد الآن وقد كبرت، وتعلمت، وصرت أميز الحلال من الحرام.

قالت:

- القطعة تعرف الحلال والحرام، وتميّز بينهما، فإذا أُلقيت إليها قطعة لحم أو جبن أكلتها أمامك، وإذا سرقته هربت بها، وأكلتها بعيداً، ومع معرفتها هذه، فإنها تسرق، وقد تحلل لنفسها السرقة، وهي حرام، بأنها جائعة، وأن أولادها الصغار العميان جائعون، أو أنها سوف تتوب بعد هذه السرقة.

وهكذا يفعل بعض الناس، يعرفون وينحرفون، ويسوغون لأنفسهم أكل المال الحرام، ويطعمون أولادهم وزوجاتهم من المال الحرام دون أن يرفّ لأحدهم جفن، ودون أن ترتجف يده أو تتجمد وهي تمتد إلى المال الحرام.

انسريت دمعتان من عيني صالح، وربت على كتف أمّ، وحمد الله على فهمها هذا، وعلى تقواها وورعها، ثم قال:

- اطمئني يا أمي، فسوف تحجّين بمال حلال.

قالت في سعادة:

- الحمد لله يا ولدي .. فأنت تعرف الحلال والحرام أكثر مني أنت عالم، وأنا جاهلة، ولكني أتعلم من أبيك، ومن الإمام، ومن هنا وهناك .. ثم .. أنا ما زلت أذكر حديثك مع ابن الجيران الذي سرق بيضتين من أمه، وأعطاك واحدة منهما، فأبيت أن تأخذها ونصحته أن يعيد البيضتين إلى القنّ، وأقنعتة بذلك، فأعادهما .. هل تتذكر هذه الحادثة يا صالح؟

- وهل أستطيع أن أنساها يا أمي؟ لقد تسوّغ سرقة تلك بأنها من قنهم، ومن دجاجهم.

فقلت له: لماذا لا تأخذ البيضتين بمعرفة أمك؟ فقال: لا ترضى، وسوف تضربني، ولذلك سرقتهما.

قلت له: رأييت؟ أنت تقول: سرقتهما .. ولا يهم أن تكون السرقة من أمك أم من غريب .. كلها سرقة.

مسحت الأمّ دموعها وهي تقول:

- وأنا لم أرك تسرق، ولم أسمع أحداً يتهمك بأمانتك، ولكن الشيطان لم يمت يا ولدي، الشيطان شاطر، ويعرف كيف يحتال على

الناس، ولذلك سألتك، حتى لا نحجّ بمال حرام، فيذهب تعبنا هباءً منثوراً، لأن الله لا يتقبل الحجّ بالمال الحرام.

- لا يتقبل الحج وغير الحج بمال حرام... لا يتقبل الصدقة، ولا الزكاة، ولا التبرع، ولا أي شيء إذا كان من حرام.. فاطمئني يا أمي.
قالت:

- قال: أو لم تؤمن؟ قال: بلى.. ولكن ليطمئن قلبي.

قال صالح:

- بارك الله فيك يا أمي.. تقولين: جاهلة وأنت تحفظين الكثير من كتاب الله تعالى، وتفهمين ما تحفظين وتقرئين، وتستشهادين ببعض ما تحفظين؟.. هنيئاً لنا بك يا أمي، فقد ربيتنا أنت وأبي على الصدق، والدين والأمانة، والأخلاق الفاضلة، وأطعمتنا حلالاً طيباً، فما نبتت لحومنا من حرام، والله الحمد.

سكت صالح لحظة ثم قال:

- ولكن.. هل تسمعين نصيحتي يا أمي؟

قالت وهي تضحك:

- أعرفها..

ومدّت لسانها الطويل، وأمسكته بأصبعيها، وتابعت تقول:

- هذا.. أنا أعرف أن لساني طويل، ويحب الكلام وكثرة الكلام، وكم دعوت الله أن يلجمه كما تلجم الحيوانات، ولكن الله لم يستجب لي... ليس بيدي.

وعندما هم صالح بالكلام، وضعت كفها على فمه، وقالت:

- تريد أن تقول يا ولد... ادع الله بظهر الغيب.. أم أنك فقدت الحياء؟

قال صالح في سرور:

- افقدت الحياء وخانني الذكاء يا أمي.

قالت في مرح:

- ليست هذه هي المرة الأولى التي يخونك التوفيق فيها.

- هذا صحيح يا أمي.. فأنا كثير الأخطاء.. غفر الله لي ولأبي
ولسائر المسلمين.

قالت:

- أما خانك التوفيق في رغبتك الذهاب إلى الحج قبل زواجك؟ ألم
يقولوا: «الزواج قبل الحجاز»؟

قال صالح:

- أرجوك يا أمي، دعينا من الزواج، فأمامي عدة سنوات لإكمال
دراستي.

قالت:

- لعلك خفت من منام ذلك الحنش؟ لا.. لا تخف يا ولدي.. فمن
غير المعقول أن تكون فطومة هي تلك الحية.. مستحيل.. أسألني أنا
عنها.. فأنا أعرفها منذ ولدتها أمها.. اطمئن يا ولدي، وما رآه الإمام
في المنام أضغاث أحلام.

- إذن.. لماذا كلفت الرجل بعمل استخارة؟

- لو كنت أعرف أنه سيرى المنام السخيف ما كلفته، ثم أنا كنت أظنه من أصحاب الأنفاس الطاهرة، وأنه سيرى مناماً جميلاً نرتاح إليه، وإذا هو يرى حيّة.. حيّة في عمامته إن شاء الله.

ضحك صالح حتى استلقى على قفاه، ونهضت أمّه وهي تقول:

- سأحضر الفطور، قبل أن يأتي من يأخذك وأنت على الريق.

وخرجت من الغرفة وهي تقول:

- قال حية قال.. الحية تأكل رأسه.

قرع باب الدار، وخرج صالح مسرعاً ليفتح الباب، فهو يعرف أن الإمام هو الذي يقرع الباب، فقد اعتاد على قرعه.

وقف معه خارج الدار، وسأله عن الاستخارة والمنام، فضحك وقال:

- ما جئت إلا من أجلهما.

- لماذا لم تحدثني عن المنام في المسجد؟

- لأنني ما كنت أعرف عنه وعن الاستخارة شيئاً.

- وهل عرفت بعد أن ذهبت إلى بيتك؟

- نعم.. حكيت لي زوجتي عنهما.

- كيف تحكي لك عن منام أنت رأيته؟

فضحك الشيخ محمد، وقال:

- دعنا ندخل فالبرد شديد .

- ولكن الوالدة مستنفرة، وقد تسمعك كلاماً يؤذيك .

- لا بأس ... دعنا ندخل أولاً .

بعد أن استقرَّ المقام بالشيخ محمد، حدث صديقه صالحاً عما جرى:

- زوجتي المصون، يا صاحبي، حاطّة عينيها على فطومة، تريد أن تخطبها لأخيها، ولذلك تورّطت مع والدتك بهذا المنام الكاذب .

- كيف؟

- بصريح العبارة، زوجتي لم تقل لي شيئاً عن الاستخارة، ولا عن الأثر الذي جاءت به أمك من أثارك .. خذه .

مدّ صالح يده، وأخذ قطعة قماش كانت أمه اقتطعتها من قميص له، وضحك الرجلان على السذاجة والخرافات لدى الريفيات الأميات المسكينات، ثم قال الشيخ محمد:

- قصّيت عليّ زوجتي ما جرى، فقد وعدت والدتك بأن أعمل لك استخارة، ولكنها لم تقل لي، لأنني عندما عدت إلى البيت كانت نائمة، وفجر هذا اليوم جاءت أمك تسأل عمّا رأيت في منامي، فاخترعت لها قصة الحية التي تريد أن تلف على عنقك أو على بدنك، لا أدري .

ضحك الشيخ صالح، ثم قال:

- لا بدّ أنها اخترعت هذا المنام، حتى تبعتها عن بنت الأخ أبي معن، لتخطبها لأخيها .

- صحيح .. هذا ما جرى .. ولكن .. احذر أن تقول للوالدة شيئاً من ذلك.

- أعوذ بالله لو عرفت هذا، لكانت فضيحة وقطيعة أبدية .. سأدبر الأمر معها، وبارك الله لحميك بتلك البنت التي لم أفكر بها ولا بغيرها .. ولكن .. ماذا أصنع مع أمي.

- أعانك الله، وأعان أباك، وأعانني على زوجتي طيبة القلب، التي تورطني كل مرة بورطة .. إنها تريد مفاخرة رفيقاتها، فلا ترى ما تفاخر به سواي.

وانطلق لسان الإمام يقلد صوت زوجته التي تحبّ الفخر فيما لا فخر فيه، على حدّ قول زوجها:

- زوجي شيخ ولا كل المشايخ .. استخارته لا تخيب ... دعاؤه مستجاب .. عالم يستطيع أن يكسر رؤوس كل العلماء في المدينة .. وهكذا .

قال الشيخ صالح وهو يمسخ دموعه من شدة الضحك:

- هنيئاً لك بهذه الزوجة .. تقول العرب: كل فتاة بأبيها معجبة، ولكن نساء قرية الطيبة معجبات بأزواجهن وأولادهن.



الفصل العاشر

كان توفيق الله حليف العاملين في المركز، فقد كانوا يعملون بجد وإخلاص من أجل إسعاد الناس البسطاء الفقراء الذين توافدوا إلى مركز الأبرار، وكانوا مثاليين في الجِدِّ والاجتهاد والانضباط، فقد شعروا بإخلاص العاملين فيه، من الوزير الذي يرأسه، إلى الإمام الذي يتولى شؤونه الإدارية والتعليمية، إلى اللجنة الوقفية التي تبذل جهوداً مضيئة لتأمين أكبر قدر من الأوقاف للمركز، لتضمن له المستقبل والصمود في وجه العواصف التي قد يتعرض لها في المستقبل القريب أو البعيد... إلى الشيخ صالح الذي يعدُّ المحرك الأساسي للعاملين في المركز، والبركة التي تجلب التوفيق والإعانات والأوقاف، والثناء الحسن للمركز.

كان العاملون في مركز الأبرار يسعون لتخليص المنتسبين إليه من سائر ألوان الظلم، مهما كلفهم هذا من جهد ومال وسهر ونصب.

كانوا يعملون بصدق لتنمية قدرات أولئك البائسين، ليتغلبوا على متاعب الحياة ومشكلاتها، وكان كل واحد من أعضاء اللجنة العليا للمركز قدوة لأبناء المركز، في الحبِّ، والتعاطف والتعاون فيما بينهم، حتى صاروا كالجسد الواحد حقيقة، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر على تخليص ذلك العضو مما يشكو منه من الحالات المرضية، المادية والمعنوية.

وكانت توجيهات الشيخ صالح، وتوجيهات الإمام، ذات أثر فعال في نفوس أبناء المركز عامة، والمكفوفين خاصة.

كان الشيخ صالح يعرض الحقائق الجديدة عن الروح الإنسانية للمكفوفين، وعن طبيعة علاقتهم بالعالم، عرضاً واضحاً محبباً يعينهم على مواجهة حياتهم الصعبة في هذه الحياة، كان يزرع فيهم الروح الإنسانية، ويرى أنها عندما تتحقق فيهم، فإنها سوف تضيف قيمة جديدة على تجاربهم الحياتية، وكثيراً ما يضرب لهم الأمثال من تاريخنا الناصع، من سيرة سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم،

وسيرة أصحابه الكرام، رضوان الله عليهم، ومن سير الصالحين من التابعين وتابعيهم، إلى العصر الحديث.

كان ينتقي من تلك السير ما يناسبهم، ويمنحهم الثقة بأنفسهم، ليعتمدوا عليها، بعد اعتمادهم على الله الرحمن الرحيم، في سائر أحوالهم، وكان يسعى جاهداً من أجل تأهيلهم ليعيشوا حياة طبيعية في مجتمعاتهم، دون عُقْد، أو مركبات نقص.. وكان يستخرج مهاراتهم ويصقلها، حتى تبدو للعيان على خير صورة.

كانت دروسه للمكفوفين مثالية، حضرها الوزير مرات، وكان في كل مرة يبدي إعجابه بأسلوب الشيخ صالح المثير للانتباه، ولحب الاستطلاع الذي يجزّهم إلى إثارة أسئلة كثيرة، ومثيرة، وكان الشيخ صالح يجيبهم عليها بعقلانية مدهشة، وعندما سأله أحدهم، والوزير جالس في الصف يستمع إلى الشيخ صالح:

- من أين لك كل هذا العلم والاطلاع يا شيخ صالح؟

أجابه بثقة عالية بنفسه:

من المثابرة على المطالعة يا صديقي..

قال آخر:

- أنت، يا شيخ صالح، عندك من الآلات والأجهزة والناس ما يساعذك على القراءة والكتابة، أما نحن، فليس عندنا سوى هذه المسطرة، وهذا المخرز.

قال صالح:

- كأنك تريد أن تسمع مطالبك لمعالي الوزير... على أيّ حال، معاليه يجيبك على هذا الكلام.

نهض الوزير عن كرسيه، وتتنح ليلفت انتباه المكفوفين، ثم قال:

- ما رأيك يا شيخ صالح في كلام الأخ؟

قال صالح:

- طلباته كلها في محلها، فالذي هيأتموه لي يا معالي الوزير، هم محرومون منه.

قال الوزير:

- اطمئنوا يا أولادي.. سوف نؤمن لكم كل ما يساعدكم على متاعب الحياة.

فهتف المكفوفون للوزير، ودعوا له بطول العمر، مع الصحة والعافية، وهب أحدهم قائماً ورفع كلتا يديه إلى السماء ودعا:

- اللهم حقق لمعالي الوزير ما يصبو إليه في هذه الحياة.

وأمن الآخرون، وأمن معهم صالح:

- آمين.. آمين.. آمين... يا رب العالمين.

ابتسم الوزير وقال:

- بارك الله فيكم يا أولادي.. ولكني أرجوكم أن تدعوا لي بحسن الختام، فقد صار مستقبلي خلف ظهري، وقد أعطاني الله الكريم أكثر مما أستحق والحمد لله على كل حال.

قال صالح في تأثر:

- بارك الله فيكم يا معالي الوزير، وأطال عمركم، وبارك لكم في أهلكم، وأوقاتكم، وأموالكم، يا أبا الفقراء والضعفاء والمساكين.

قال الوزير:

- البركة فيك يا شيخ صالح يا ولدي.. وإذا داهمني الموت، فسوف يكون هؤلاء الشباب أمانة في عنقك. أرجو أن تؤمن لهم كل ما يحتاجون إليه، وإذا كانت ميزانية المركز لا تسمح، أو لا تفي بالمطلوب، فأنا جاهز.. خبرني يا ولدي لأؤمن لك ما تطلب ويطلبون.

علت هتافات الأكفاء من جديد، فلم يملك الوزير دموعه ثم ودّع صالحاً وتلاميذه، وغادر الصف، وهو في غاية التأثر الذي لم يخف على صالح وتلاميذه المكفوفين الذين شعروا بحال الوزير، فهتفوا له، وعلا هتافهم حتى وصل إلى مسامع من في الخارج، فأعلموا الإمام، وجاء الإمام على عجل، ليرى منظرًا عجباً.. تقدّم من صالح، وسأله عما يجري في الصف، فلم يستطع صالح الردّ عليه، لأنه كان في غاية الانفعال، فسحبه من يده، وخرج به من الصف، وترك التلاميذ في حالهم.

في غرفة الإدارة، قصّ صالح على الإمام ما كان من أمر الوزير والتلاميذ، ثم قال:

- كيف ترى صحة الوزير؟

- على ما يرام.. لكن.. لم هذا السؤال؟

قال:

- كان كلامه كلام مودّع.. هكذا شعرت.

استكر الإمام هذا الكلام من صالح، وأنبه عليه، وقال:

- صحّة معالي الوزير خير من صحّتي وصحّتك.. إنه شاب وإن كان في الستين من عمره.

- أرجو ذلك.

ورفع يديه إلى السماء وابتهل:

- اللهم إنك تعلم أنّ هذا الرجل الطيّب قطعة نادرة في هذا الزمان، وأنت تعلم يا ربي مدى حاجة المركز والقرية والضعفاء والمساكين إليه من بعدك.

اللهم فأطلّ عمره، وبارك له في أهله وماله ووقته، ولا تحرمنا من وجوده ومن حياته معنا يا ربّ العالمين، يا ناصر المستضعفين، يا الله.

كان الشيخ محمد يؤمّن على ابتهالات الشيخ صالح، وعندما انتهى الشيخ صالح من دعائه، ومسح وجهه بكفيه، قال له:

- والله، يا شيخ صالح، هذا الوزير لا مثيل له، وقد سمعت أنه ينوي بيع القصر، بعد أن وقف المزرعة للمركز.

سأل صالح:

- ممن سمعتَ هذا؟ ولماذا يبيع القصر؟

- من أجل المركز، وقد أرسلت زوجته رسالة إليّ مع السائق، أخبرتني فيها بما ينوي الوزير فعله، وترجوني أن أتدخل أنا وأنت من أجل منعه من بيع القصر.

نهض صالح وهو يقول:

- الله أكبر.. الله أكبر.. وماذا تتوي أن تعمل يا شيخ محمد؟

- أنا أريد رأيك يا شيخ صالح.

قال صالح:

- لقد قدّم الوزير الكثير، وأرجو أن يسمع نصيحتنا بعدم بيع القصر الذي يسكنه هو وأهله.

قال الإمام:

- سمعت أنه لم يعد يملك شيئاً ذا بال، سوى راتبه التقاعدي، والقصر.

- ومع ذلك أمرني بتأمين ما يطلبه الأكفاء في المركز، وقال: إذا لم تسمح ميزانية المركز، أو لم تف بالمطلوب، فأعلمني لأؤمن لك المطلوب.

اتفق الشيخان على تتي الوزير عما يفكر به، وقرراً أن يفتح الحاج فاتحاً بذلك، لعله يساعدهما.

وكان الحل عند الحاج فاتح بأن يترك له هذا الأمر، وسوف يحسن التصرف فيه، ولن يسمح للوزير ببيع القصر، فليطمئنتوا زوجته.

وقال الحاج فاتح:

- ثروتي المتواضعة كلها تحت تصرف هذا الرجل النبيل.

- بارك الله فيك يا عمي الحاج، وبارك لك في ثروتك.

نقل الحاج فاتح نظره بين الشيخ محمد والشيخ صالح، كأنما يدور في رأسه أمر مهم يريد أن يفضي به، ولكنه يتردد في البوح به، حتى استحثه الشيخ محمد بقوله:

- في فمك كلام يا حاج فاتح تريد أن تقوله، ما هو؟ نحن أصدقاؤك.

قال الحاج فاتح في تلجلج:

- هذا صحيح..

- إذن .. هات ما عندك يا عمي.

قال الحاج فاتح:

- والله لا يحملني على عرضي الذي سأعرضه عليك يا شيخ صالح، إلا حبي لك، وإعجابي بأخلاقك ودينك وطيب أصلك.

قال صالح في حياء:

- أستغفر الله يا عمي.. حبك لي لا يقل عن حبي لك، وإعجابي بك يا أبا المروءات يا عمي، بلا حدود.

قال الحاج فاتح:

- بنتي (غالية) غالية جداً عليّ، وليس فيها عيب، فهي متعلمة، وديّنة، وعلى خلق كريم والله، وجمالها فوق الوسط.

قال الإمام:

- تكلم يا حاج.. لماذا سكّت؟

قال الحاج فاتح:

- يقولون: المعروض مذلول، ولكني سأعرض بنتي على ولدي الشيخ صالح ليتزوجها إن أحب.

ظهر العرق على جبهة صالح كحبات اللؤلؤ، واحمرّ وجهه والتهبت أذناه من شدة الحياء، فقال الإمام:

- ما لك يا شيخ صالح؟ الحاج فاتح في مقام الوالد والأخ الكبير، وما قاله يوزن بماء الذهب.

فقال صالح:

- خستُ الذهب وماء الذهب أمام كلام عمّي الحبيب الغالي الحاج فاتح، يحفظه الله وأهله الكرام ويرعاهم.

قال الإمام:

- توكلنا على الله.

قال صالح:

- على مهلك يا شيخ محمد، فلا بدّ من بعض الاستفسارات إذا سمح عمّي الرائع الحاج فاتح.

قال الحاج فاتح:

- كل الذي تريد قوله معروف عندي، فأنا أعرف حساسيتك المفرطة يا ولدي.

- بارك الله فيك يا عمّي، وأرجو أن يتسع صدرك لأسئلتني.

تفضّل يا ولدي.

اعتدل الشيخ صالح في جلسته، ومسح العرق عن رأسه وجبينه ووجنتيه، ثم قال:

- أليست الكفاءة شرطاً من شروط صحّة الزواج؟

- وأنت كفؤ لأفضل بنت في هذا البلد.

قال صالح:

- حبّك لي يا عمي يجعلك تقول هذا.

- بل هذا هو الواقع، فأنت شاب متعلم، وسوف تحمل الماجستير والدكتوراه إن شاء الله وسوف تكون أحسن أستاذ جامعي، بإذن الله، ولا تنقصك الصحة، ولا الوسامة والجمال يا ولدي اللهم إلا إذا كنت ترى أن ابنتي غالية دونك.

سارع صالح إلى القول:

- أستغفر الله يا عمي.. أنا لا أرى في نفسي الكفاءة لها، فأنا أعمى، وابن فلاح مستور الحال.

قاطع الحاج فاتح:

- كفّ عن هذا الكلام يا ولدي، ولا أرى من المناسب لك أن تبقى في مثل هذه الحساسة.

فتدخل الإمام وقال:

- هل تسمحون لي بالتدخل؟

قال الحاج فاتح:

- بل كن حكماً عادلاً بيننا يا شيخ محمد، فوالله الذي لا إله إلا هو، لقد خطبها أربعة من أبناء كبار التجار، ورددت خطوبتهم، لأنني لا أرى من يكافئها في العلم والفهم والدين والأخلاق إلا الشيخ صالح.

- سأل الإمام:

- هل استشرت البنت يا حاج؟

- نعم.. شاورتها، وشاورت أمها، وسألتنا بعض الأسئلة عن الشيخ صالح، وأجبتهم بصراحة.. أنا هكذا مع أولادي عامة، ومع (غالية) خاصة.. جلست معها على انفراد أكثر من مرة، وناقشنا الأمر من جوانبه كلها، وكانت موافقتها تامة.

- وموافقة أمها؟

- تامة أيضاً.. فنحن لا نفكر بالمال، فعندنا منه الكثير والحمد لله، ولا نفكر بالجاء والسلطان.. نحن نفكر بكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وبتعاليمه السامية، ونحاول تطبيقها في حياتنا العملية.

قال الإمام:

- والرسول الكريم صلى الله عليه وسلم يقول:

«إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه»، وأنا أشهد أنك يا شيخ صالح..

صاح صالح:

- لا تكمل أرجوك يا شيخ محمد..

قال الشيخ محمد:

- بل سأقول ما أعرفه عنك، فالمستشار مؤتمن، مع أن عمنا الحاج فاتح لم يستشرنني.. فأنا أشهد الله على أن ما على لساني هو في قلبي، وأشهد الله تعالى أيضاً، أنك يا شيخ صالح ذو خلق ودين، ولو كان لديّ أخت تليق بك، لخطبتك لها.

قال الحاج فاتح:

- يقولون عندنا: اخطب لبنتك، ولا تخطب لابنك، ولذلك جئتكم خاطباً يا ولدي.

قال الشيخ صالح:

- والله هذا شرف كبير لي ما كنت أحلم به.

رفع الشيخ محمد يديه وقال:

- ياربِّ تمِّم بالخير يا كريم.

قال صالح:

- لا بدّ أن أستشير والدي ووالدتي يا عمّي الفاضل؟

قال الحاج فاتح:

- طبعاً لا بدّ من مشاورتهما، وأخذ موافقتهما.

وتابع صالح:

- ولا بد أن يذهبا إلى بيتكم العامرياً عمي، ليخطبا كريمتكم المصون.

قال الحاج فاتح:

- نحن ننتظر منكم مكالمة هاتفية، لتحديد موعد الزيارة، في حال موافقة الوالدين الصالحين، ليريا البنت، ويقرّرا ما يريانه مناسباً.

وفي المساء، جلس صالح بين أبويه وقال:

- عندي مفاجأة.

وقصّ عليهما ما جرى، فأطلقت أمّ صالح زغرودة مجلجلة، والشيخ صالح يرجوها أن تكفّ، ولكنها قالت:

- سأفرح.. سأزغرد.. كفاكم ما فعلتم بي... لقد أعميتم قلبي...
أجدادك وجداتك يا صالح كانوا أتقى وأعلم منك ومن أبيك، ومع

ذلك، كانوا يعبرون عن أفراحهم بالزغاريد والدُّبُّك والرقص بالسيف والتُّرس، كما يعبرون عن أحزانهم بالبكاء.. فاتركوني أفرح ولو مرة واحدة في عمري الذي انتهى.

وأطلقت زغرودة أخرى، وتركها صالح، استجابة لأبيه الذي أشار إليه أن يتركها تعبّر عن فرحتها بطريقتها، ثم قالت:

- مبارك يا ولدي... هذه أحسن من تلك الحيّة التي كانت ستلف على رقابنا جميعاً، مع أن الشيخ محمد قال: كانت تلف على رقبتك أنت وحدك.

ابتسم صالح، وكنتم أمر الشيخ محمد وأمر زوجته أم محمد التي اخترعت قصة الاستخارة والمنام، ثم قال: ما رأيكما؟

قال الوالدان بصوت واحد:

- موافقون... موافقون..

وزادت أم صالح:

- حدّد لنا موعداً لنزورهم غداً، وأقول لهم: نحن مستعجلون، ونريد أن نزوّج ابنتنا خلال أسبوع.

قال أبو صالح بهدوء:

- يا أم صالح.. نزورهم أولاً، ثم نراعي ظروفهم في توقيت العقد والزفاف.

- لا.. السرعة أولاً. على أيّ حال، اتركوها عليّ، سوف أتفاهم مع عروسنا ثم مع أمّها.. وأنا أمّها وأبوها، وسوف ترون.

قال صالح:

- والحج يا أمي؟

قالت:

- الجواز قبل الحجاز.. أم أنك لم تسمع هذا الكلام قبل الآن؟

- بل سمعته منك يا أمي..

قالت مقطّبة مبتسمة:

- إذن.. اسمع كلام أمك يا ولد.

- سمعاً وطاعة يا أمي الغالية.

- ولكنك لم تقل لنا ما اسم البنت، فعند الحاج فاتح بنتان في سنّ الزواج.

- اسمها غالية يا أمي الغالية.

فضربت على ظهره، ثم شدّت أذنه، وهي تقول:

- قلت في نفسي، صالح دائماً يقول: يا أمي الحبيبة، هكذا اعتادت أذني على سماع (حبيبة) فلماذا يقول لي الآن: يا (غالية) يا أمي الغالية.. من أجل (غالية) يا ولد؟

ابتسم أبو صالح ابتسامة ملأت محياه ثم قال:

- قلعت أذن الولد يا أمّ صالح... اتركه.

لن أتركه، حتى لا ينسى أنني أنا الغالية، وليست (غالية) وحدها.

- ستكونين أنت غالية، وهي غالية أيضاً.

قالت في سعادة ظاهرة:

- والله عندما رأيت (غالية) في مزرعة الوزير، نزلت بقلبي مثل قرص الشهد، ولكن تلك الحيّة كانت آخذه عقلي وقلبي، لكنّ.. كثر الله خير الشيخ محمد الذي كشف لنا تلك الحية الرقطاء.. لقد فتح عيني على عيوب فيها ما كنت أعرفها.

قال صالح ضاحكاً:

- ومع ذلك، زعلت منه، واغتبته.

قالت:

- أرجوك يا شيخ صالح أن تطلب منه أن يسامحني، ولكنّ.. احذر أن تقول له ما قلته فيه .. مفهوم يا ولد؟

- مفهوم يا أمي.

وقال أبو صالح:

- على أن تستغفري لذنبك، ولذنبه أيضاً، وعلى أن تعاهدي الله ألا تذكرها أمام الناس إلا بالخير.

قالت:

- أنا لا أقول عنها حيّة إلا أمامكم.

- ولا أمامنا.

- ولا أمامكم.. ولتفرح تلك الحيّة، فقد نجت بجلدها.

- استغفري الله يا امرأة.

- استغفر الله يا رجل.. أما أنت يا شيخ صالح، فلا تنس الاستخارة، وإياك أن تقول لي: رأيت في منامي حيّة.. بل غزالة.. مفهوم؟

- مفهوم يا أُمي.

وفي فجر اليوم التالي أيقظته مبكراً قبل طلوع الفجر، وسألته عن الأحلام الوردية التي رآها في المنام، فقصّ عليها مناماً جميلاً كان رآه في الأيام الأولى لتعرفه إلى الحاج فاتح، وقد شرح الله صدره لهذا الرجل من تلك الأيام، وقد رأى ذلك المنام هذه الليلة بالتمام والكمال. دمعت عينا أم صالح، وسجدت شكراً لله، ثم قالت:

- قم إلى وضوئك يا ولدي، فقد شارب طلوع الفجر.

بعد صلاة الفجر، سأله الإمام:

- وافقاً؟

فهز صالح رأسه ثم قال:

- بقيت موافقة عمي الوزير.

قال الإمام:

- هيّا بنا إلى المنزل، لتهاطفه من عندي، وتتكلم بحريّة وصراحة، دون تدخل والدتك الطيّبة.

ابتسم صالح وقال:

- إنها لم تنس منامك عن الحيّة.

فضرب الإمام كفاً بكف وهو يحوقل.. فطمأنه صالح بأنها سوف تتناسى ذلك المنام، وطلبت مني أن أرجوك لتسامحها على تعليقاتها

على منامك.

صاح الإمام:

- وأنت أيضاً تقول منامك؟

- ألم نتفق أن نبعد زوجتك عن الموضوع، حتى لا تفسد العلاقة بينهما، فتفسد بيننا.

قال الشيخ محمد في حب وانفعال:

- مستحيل يا شيخ صالح.. مستحيل أن تفسد العلاقة بيني وبينك.. فأنا أدعو الله في سرّي وعلني أن يجمعنا في الجنة، كما جمعنا هنا في الطيبة.

وسكت هنيهة ثم حثّ الشيخ صالحاً على النهوض معه إلى البيت، لاستشارة الوزير قبل أن يعود إلى نومه.

فرح الوزير فرحاً شديداً بهذا الخبر، وقال:

- الحمد لله يا ولدي.. أبواب السماء مفتحة لدعوات من يدعو لك، فمهما فتشت وشرقت وغرّيت، لا تجد مثل الحاج فاتح، ومثل تربية بناته. مبارك يا ولدي، وسوف أصحبكم لأشارك في الخطوبة.

وفي منزل الحاج فاتح اجتمع شمل الأحبة، وتم الاتفاق على كلّ شيء بين الوزير والحاج فاتح والإمام، فيما كان صالح وأبوه ينصتان ويكتفیان بهزّ رؤوسهما بالموافقة على كلّ الترتيبات.

سأل الوزير عن ميعاد إعلان الخطوبة، وكتابة العقد، فجاءه صوت أمّ صالح من وراء الباب:

- اليوم يا حضرة الوزير.. خير البر عاجله، أليس كذلك يا حاج

فاتح؟

قال أبو صالح:

- هذه أمّ صالح.. دائماً مستعجلة.. لو استطاعت أن تزفهما الآن لما تأخرت.

قال الشيخ محمد:

- وأنا معها.. خير البرّ عاجله.

وقال الوزير:

- وأنا معك ومعه يا شيخ محمد.

قال أبو صالح:

- كنا نستعد للحجّ هذا العام، أنا وصالح وأمه.

فقال الإمام:

- وزوجته.. هل لديك مانع يا حاج فاتح؟

- قال الحاج فاتح:

- هذه بشارة خير، وأرجو منك يا أبا صالح أن تضمّوني وزوجتي إلى قافلة الخير هذه، لنحجّ معاً.

فقال الشيخ محمد:

- وأنا موافق على أن أكون مع زوجتي ضمن هذه القافلة المبرورة.

قال الوزير في حزن:

- ليتني كنت أستطيع أن أصحبكم.

سأل الحاج فاتح عن المانع، فسكت الوزير، عندها قال الحاج فاتح:

- أنا العبد الفقير إلى الله تعالى أدعوكم إلى ما يلي:

أولاً: أدعوكم مساء هذا اليوم لعقد قران ولدي الشيخ صالح على بنتي غالية، موافقون؟

- موافقون.

- ثانياً: قرّرنا أن يكون حفل الزفاف ليلة الجمعة الآتية. موافقون؟

- موافقون.

قال الإمام:

- رابعاً: قرّرنا أن يكون كل ما تقدّم على حساب أخيكم الحاج فاتح أرجو ألا تخبوا ظنّه فيكم.

موافقون؟

فهتف الحاج فاتح فرحاً سعيداً:

- بارك الله فيك يا شيخ محمد.. كنت سأقولها لو لم تسبقني إليها.



الفصل الحادي عشر

كانت رحلة الحج ممتعة، كان كل رجل منهم يصحب زوجته، يتعبدان معاً، ويعلمها كيف تطوف، وكيف تسعى، وكيف تحج، ثم عادوا وكأنهم وُلدوا من جديد، عادوا وهم أشد حُباً وتعاطفاً وتماماً، وتصميماً على إنجاح مشروع العمر، كما يسمّيه الشيخ صالح، الذي تضاعف بذله في سبيل إنجازهِ وكانت زوجته الحاجة (غالية) نعم المعين له في إدارة المركز، بما أوتيت من رجاحة عقل، وحُسن تدبير، كما كانت له خير معين على الدراسة والتحصيل، وكان شعارها:

لا لليأس.. لا للفشل.. لا للتشاؤم.

نعم للأمل.. نعم للنجاح.. نعم للتفاؤل.

كانت تمضي الليالي معه والساعات الطوال في مدارسِ المشروع، كانت تقول له:

- لو رزقنا الله ولداً جميلاً ذكياً مثلك، لما كان أغلى عندي من مركز الأبرار، يا أيها الشاب الصالح.

لقد بثت في نفسه روح التحدي للمصاعب والمتاعب، وروح الفرح والتفاؤل، فكان لا يبدو للناس إلا مبتسماً، فرحاً، متفائلاً، ذا روح مرحة.. لقد تجاوز كل معاني العزلة النفسية والمادية، وتخلص من عقدة العمى، وعمل جاهداً حتى خلص تلاميذه المكفوفين من عقدة النقص هذه، وكان يروي لهم بعض نكات مشاهير المكفوفين يقول لزميله في المركز:

- حدثت مشادة اليوم بين اثنين من العاملين في المركز، ثم ارتضيانني حكماً بينهما، فلمّا حكمت لأحدهما، غضب الآخر، وسبّني، وقال لي:

- وما أدراك بمثل هذه الأمور وأنت أعمى.

فقلت له:

- إذا كان الأمر كذلك، فلماذا دعوتني أنت بالذات لأحكم بينكما؟

قال:

- لتحكم لي.

- ولو بالباطل؟

- ولو بالباطل.

فتذكرت ما رواه لنا الشيخ صالح عن أحد العميان العباقرة من أمثالنا، عندما قال:

«أنا أحمد الله على العمى، كما يحمده غيري على البصر».

فلما سئل عن السبب أجاب:

حتى لا أرى أمثالك من مبصري العيون، عميان القلوب.. فهذا الشخص المفتاح صاحب العيون يريدني حكماً لأحكم له، ولو بالباطل، أفليس من الخير لنا ألا نراه ولا نرى أمثاله؟

ضحك الشيخ صالح في سرّ أولاً، ثم علا ضحكه، فأحسّ بوجوده تلميذاه المكفوفان، تقدّم منهما، وسلّم عليهما بحرارة، وضغط على أيديهما، وقال:

- ذاك الشاعر الفيلسوف المعري الذي قال:

«إني أحمد الله على العمى، حتى لا أرى من لا أحب».

أما نحن.. فنحمد الله تعالى في سائر أحوالنا، ونحبّ سائر الناس، المحسن ندعو الله أن يزيده إحساناً، والمسيء ندعو الله

أن يخلصه من إساءته.. نحب الناس، ونزهد بما في أيديهم، ونترفع عن سفاسف الأمور، كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام رضوان الله عنهم، وسائر الرجال الصالحين، ممن سبقونا بإحسان، ومن المعاصرين، ومنهم المكفوفون مثلاً، ومنهم المبصرون.

هكذا كان الشيخ صالح لا يفوت مناسبة إلا ويستثمرها للصالح العام، من أجل إقامة مجتمع سليم، تسوده المحبة، ويتعاون أبناءه على البر والتقوى، وقد جعل من مركز الأبرار مجتمعاً صغيراً منتجاً، يعمل من فيه كخلية النحل في الحب، والتعاون، والحركة، والإتقان، فقد جعلهم متحايين متعاونين، متقنين، والشعار المعلق في أرجاء هذا المركز، قول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه».

كما علّقوا على جدرانهم، وفي الأماكن البارزة شعارات أخرى، تحث على الجد والاجتهاد، وعلى الحب الخالص لله وفي الله، وعلى التعاون المثمر، وعلى العمل بروح الفريق الواحد، وتحض على التقوى وصالح النيات في سائر الأعمال، وعلى الصدق في القول والفعل، وما شابه ذلك من آيات الله العظيم، ومن أحاديث رسوله الأمين - صلى الله عليه وسلم - ومن الحكم والأمثال والأشعار التي تدعو إلى الجد والإخلاص في سائر أحوال أبناء المركز.

كان الوزير يزور المركز مرة أو مرتين في الأسبوع، ويقرأ في وجوه العاملين فيه، والمنتسبين إليه، وفي حيوياتهم ونشاطهم، ما يسعد قلبه، ويجلو صدى الذكريات المريرة عن المجتمعات الأخرى، في الأجهزة والدواوين العامة والخاصة، تلك التي تسودها الفوضى واللامبالاة والتقاعس والتواكل والكسل وغيرها من الأمراض النفسية والقلبية، ولا يسعه إلا أن يدعو للشيخ صالح، صاحب فكرة هذا المشروع، والذي بذل وما زال يبذل الكثير من أجله.. يدعو الله

له باطراد النجاح وأن يحالفه التوفيق لتطوير هذا المركز تطويراً يجعله أمثلة فيحذو حذوه الرجال المخلصون الآخرون، ففي هذه الأمة خير كثير، ولن تعقم النساء أن يلدن مثل صالح، في نظافة عقله وقلبه ویده.. وتكون هناك مراكز كمركز الأبرار، تعمل للخير العام، وتذوب مصالح العاملين فيها في المصالح العامة، وينأون عن الأنانيات والأهواء الشخصية، والمصالح الذاتية الكفيلة بإجهاض أي مشروع مهما كان عظيماً أو صغيراً، مادام القائمون عليه يقدمون مصالحهم الذاتية على المصلحة العامة، وكان يرى أن تُكتب سيرة هذا الفتى الكفيف الذي أسس هذا المركز على التقوى، ليقّتي الآخرون به، ويؤسسوا مراكز صالحة كما أسس، ومن مجموعة هذه المراكز الصالحة، يتأسس المجتمع الفاضل، ويتخلص الناس من التخلف والجهل والظلم.

وقد أفضى الوزير بهذه الرغبة إلى بعض أصدقائه من أساتذة الجامعات، فتحمس أحدهم للكتابة عن هذا المشروع البديع وعن صاحب فكرته، وقال:

- سوف أكلّف أحد طلابي النجباء، بأن يزور المشروع، ويلتقي الشيخ صالح، ثم نجلس معاً، يا معالي الوزير، لنساعد الطالب في إنجاز رسالته الجامعية عن المشروع منذ كان فكرة تطوف في نفس الفتى صالح، إلى أن تطورت الفكرة، ثم تجسّدت في مركز الأبرار.

قال الوزير:

- ولكن الجهد الأكبر أرجو أن يدور حول الشيخ صالح، هذا الشاب الذي لم يمنعه فقد بصره، من أن يكون عنصراً فعالاً في مجتمعه القروي الصغير، ثم في المعهد الشرعي الذي تعلم فيه، ثم في كلية الشريعة، وفي هذا المركز.. لقد كان الشيخ صالح مؤثراً في كل مجتمع عاش فيه وعاشه، وسوف يرى تلميذك الذي سيكتب هذه الدراسة أن شخصية صالح مؤثرة، أسرة، وسوف يستفيد هو منها، كما استفدت أنا.

- أنت يا معالي الوزير، استفدت من ذلك الفتى الأعمى؟

- إي والله ... استفدت من تجرّده عن مصالحه الشخصية، وعن الأنانية وحبّ الذات.. استفدت من أمانته وصدقه.. استفدت من دأبه، فهو نشيط لا يكلّ ولا يملّ ولا يتعب، يواصل الليل بالنهار لإنجاز ما يكلف نفسه به.. استفدت من تصميمه على النجاح، بعيداً عن كل أسباب اليأس والإحباط، وما أكثرها في حياتنا.. ولو أردت أن أكتب لك وتلميذك عن حياة هذا الشاب الكفيف، لسطرت لكما كتاباً كبيراً.

قال الدكتور:

- هل يستأهل أن تكتب عنه كتاباً؟

قال الوزير في جدّ:

- أنا لا أبالغ، وسوف تؤخذ أنت وتلميذك بما قدمه الشيخ صالح، وبما يقدّم للمركز، والقرية، على الرغم من أنه سوف يناقش رسالة الماجستير قريباً جداً إن شاء الله تعالى.

قال الدكتور وهو يهزّ رأسه:

- سوف نرى يا معالي الوزير، وسوف نستفيد منك ومن خبراتك ومن معلوماتك إن شاء الله.

- إن شاء الله تعالى يا دكتور.

شروط الإسهام في الإصدار الأدبي والفني «إسهام»

- أن يكون للباحث إسهام في ميدان الأدب والفنون
- أن يكون العمل الأدبي في الشعر أو القصة أو الرواية أو المسرح أو الدراسة الأدبية، أو الفنون مثل فن الخط والزخرفة والعمارة وغيرها.
- أن يكون العمل جديدا لم يسبق نشره.
- أن يعالج مضمونه وفق الرؤية الوسطية.
- أن يسهم في التنمية الفنية والجمالية للفرد والمجتمع.
- أن يقدم العمل مطبوعا في ثلاثة نظائر، إضافة إلى قرص مدمج، وأن لا يتجاوز مائتي صفحة، من حجم A4، وبخط Simplified Arabic، ذي البند 16.
- يحق للجنة العلمية أن تقترح على صاحب العمل إدخال التعديلات المناسبة.
- لا تسترد الأعمال غير المنشورة.
- يقدم لصاحب العمل المنشور مكافأة مالية تقديرية.

نهر متعدد.. متجدد

هذا الكتاب

فوجئ صالح بهذه الدعوة، ولكن قلبه كان يرقص من الفرح، فما كان يحلم أن يدعو أحد أساتذته إلى بيته فكيف بالوزير نفسه؟ لكن... لماذا هذه الدعوة؟ ماذا وراءها؟ هل هي للعطف عليه، أم لإكرام العلم وطلاب العلم؟ أم أنه قصص على زوجته ما جرى فطلبت هي أو ابنها أو كلاهما أن يدعوني إلى الغداء.

لكن... من أنا؟ ومن أكون حتى يفكر بي هؤلاء؟ لا بد أن في الأمر سرّاً: صحيح أنني طالب متفوق على زملائي وربما كنت أذكى منهم جميعاً، ولكن هذا ليس مسوغاً لمعالي الوزير ليدعوني إلى بيته.



وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
قطاع الشؤون الثقافية
إدارة الثقافة الإسلامية